روضة الفرخ الهدهد

اليافاوية

سيرة ذاتية (١)

إهداء عام

الى د. رضوى عاشور
وروايتها "الطنطورية"
وإلى جمعية يافا "للتنمية
الاجتماعية"

وأحاديث الذكريات.

إهداء خاص

إلى روح والدي ووالدتي

وروح أخواتي وأخي وابنه

وإلى أخواتي وأخوي.

شكر وتقدير

عندما سمعتُ مصطلح " التاريخ الشفهي للشعوب " من محاضرة للدكتورة " إلهام أبو غزالة " ، تحثُ فيها الشعب الفلسطيني على كتابة تاريخه بيده وعدم تركه لأهواء المؤرخين، يكتبونه حسب انتماءاتهم السياسية ؛

وعندما تكرر سماعي أُكذوبة " أن الشعب الفلسطيني باع أراضيه قبل الهجرة ، فلا يحق له أن يطالب بالعودة إليها"، وأصبح هذا المفهوم " بيع الأراضي " سُبّة وعار في جبين اللاجئ الفلسطيني أينما ذهب ، خصوصاً في الأقطار العربية ؛

وعندما حضرتُ بعض اللقاءات والندوات التي تحدث فيها "كبار السن " عن ذكرياتهم في هجرتهم القسرية من بيوتهم وأراضيهم في فلسطين ، وتشردهم في مخيمات اللاجئين ؛

أحسستُ أن عليَّ واجباً لكتابة هذه السيرة الذاتية عن هجرة عائلتي من يافا ، علّي أساهم في صياغة التاريخ المكتوب من خلال تجربة ذاتية عشتها طوال الهجرة منذ عام 1946 وإلى اليوم ..

إنني مدينة بالشكر والتقدير لكل من حرّضني على ضرورة كتابة التاريخ الشفهي للشعوب ، وضرورة دحض فكرة بيع

الفلسطيني لأرضه ووطنه والرحيل عنه .

كما أنني مدينة بالشكر والتقدير للذين قرأوا المخطوطة وعلّقوا عليها :

أولاً أختي ازدهار فهيم الفرخ ، التي واكبت قراءتها من البداية وبعد كل زيادة أو توسّع في مواضيعها ، وحتى بعد تصحيحها في المسودات المختلفة .. لقد عاشت شقيقتي الهجرة ورأتها بأم عينيها ، ووعت تفاصيلها ، فكانت شاهداً على صدق ودقة هذه التفاصيل .. فلها كل الشكر والتقدير .

والشكر لأبنائي وأبناء أخواتي وأقاربي الذين عرضتُ عليهم المخطوطة ، فأبدوا آراءهم الشفهية والخطية حول بعض ما ورد فيها . أبنائي : خالد وشادن ووليد وعمر وصلاح الدين الهدهد ، وأبناء أخواتي : حنان شعبان وزوجها الدكتور محمد حجاج ، وباسل بدران وشقيقته هاله بدران ، وهدى عزالدين وابن عمي طاهر أحمد الفرخ ..

والشكر أيضاً لصديقاتي اللواتي قرأن المخطوطة وأثنين عليها وطالبنني بزيادة أبوابها : هالة العقاد ورهام حسني

حسن ويارا البرق ولمياء سعد النمري .

وكذلك الشكر للزميل عبدالله رضوان .

كما أشكر الشابة الموهوبة ازدهار هاني الأفيوني على لوحتها الفنية للغلاف .

وأخيراً الشكر لوزارة الثقافة على دعمها لطباعة هذا الكتاب

روضة الفرخ الهدهد
٢٠١٢/٦/١٠

تقديـــم

لا يعرف الشوق إلا من يكابده

من شوقٍ إلى شوق تمضي حياة الفلسطيني في الشتات ، يحلم بيوم اللقاء بوطنه المغتصب فلسطين ، سواء كان هذا الفلسطيني ممن ولد على أرض فلسطين وتم اجتثاثه منها على أيدي الصهاينة الغاصبين ، أم ممن ولد في الشتات وكبر ونما معه حبه لفلسطين وشوقه للقائها ، من افتقاده لها ومن كثرة ما يسمع عنها من أهله وذويه، وكيف أنها جنة الله في أرضه، وكيف كان أهلها ينعمون برغد الحياة وأطايبها قبل أن يبدأ اليهود الصهاينة حربهم الهمجية ضد الفلسطينين ويقوم بإرتكاب المجازر بحقهم لارهابهم وحملهم على ترك الوطن ومغادرته .

ذلك هو لسان حال كاتبتنا القديرة السيدة روضة الفرخ الهدهد وهي تتصدى لمهمة عسيرة حين تكتب سيرة ذاتية لمأساة أسرتها حين اقتلاعها من الوطن الغالي فلسطين ومعاناتها في الغربة وكفاحها في متابعة تعليم أفرادها ، ثم غربة بعضهم مرةً أخرى حين تركوا الأردن التي استقروا فيها بعد نكبة عام ١٩٤٨ إلى دولٍ أخرى في الخليج العربي طلباً للرزق كما حصل مع كثير من الأُسر الفلسطينية .

بأسلوبٍ سهل ممتنع وبسرد تلقائي للأحداث ؛ يبدأ قبل حدوث نكبة ١٩٤٨ تمضي كاتبتنا السيدة روضة في رسم صورةٍ

واقعية لرحلة اللجوء من مدينــة يافا المحتلة مروراً بالرملة، التي لم تستطع الأسرة المكوث طويلاً فيها لامتداد العدوان الصهيوني إليها ، والذي أجبرها على مغادرتها نحو الشرق باتجاه مدينة رام الله ومن ثمَّ إلى عمان حيث استقرت الأسرة فيها حالمة بيوم العودة إلى فلسطين .

شعرت كاتبتنا أن هناك الكثير مما يمكن عمله لخدمة قضية الأمة المركزية ، وتوعية الأجيال الصاعدة بتاريخ هذه القضية ، وما قدم الآباء والأجداد من تضحيات لإنقاذ فلسطين من براثن العدوان الصهيوني الغاشم، فكانت سلسلة(حكايات بطولية للأطفال)والتي تتناول سيراً لمجموعة من الأبطال والشهداء الذين سقطوا في ميادين الشرف دفاعاً عن فلسطين وحقوق أهلها .

لقد كتب الكثير من المجلدات والكتب عن نكبة فلسطين وما ألمَّ بشعبها . وأما كتابة حكاية مثل "اليافاوية" بطريقه مختصرة تكاد لا تغفل شيئاً من التفاصيل الدقيقة ، فتلك لعمري مهمةً صعبة ، أجد السيدة روضة جديرةً بالتصدي لها بحيث جعلتنا نعيش مع أسرتها كافة مراحل النكبة .

تعالوا معي نقرأ الرائع من نتاج قلم السيدة روضة ، واسمحوا لي أن اشكرها معكم على هذا الجهد المخلص والذي كتب

بطريقة لا تدعك تترك القصة حتى تنهيها.

الدكتور: محمد علي حجاج
عضو جمعية يافا للتنمية الاجتماعية

بسم اللّه الرحمن الرحيم

أمسكت يد أختها وانطلقتا إلى بيت العم الكبير الحاج محمد.. قالت لها ستها أم حسن : "خدي بالك يا هدى من أختك الصغيرة .. امشوا على جانب الطريق .. أوعي عربات الكارو في الطريق .. وارجعي بسرعة ولا تتأخري .. قولي لعمك الحاج محمد ستيّ بتسلم عليك وبتقول لك ياريت تعطينا حصتنا من إيجار الأرض . الفلوس خلصت وبدنا نشتري أغراض للبيت.."

مشت هدى وأختها بكرية إلى محل العم محمد ، كانت طوال الطريق تنظر إلى المحلات على جانبي الطريق.ومن بعيد تبدو لها أشجار البرتقال وبيارات الخشخاش والجريبفروت،وعلى الطريق تمر عربات الكارو يجرها حمار وعربات "الديلجانس" يجرها حصان مع مقعد وثير تركبه السيدات أو الرجال الأنيقون .. كم تمنت لو تركب يوماً هذه العربة البسيطة أو تلك الفخمة ، ولكن كيف لها هذا وهي اليتيمة التي لا أم لها ولا أب .. لم تعرف معنى كلمة ماما ، ولا تذكر أنها قالتها..أختها قربها لم تعرف أمها أيضاً .. كل ما في الدنيا حولها هو ستها أم حسن ، وأصعب مشوار عليها هو هذا المشوار ، تمشيه سيراً على الأقدام، إلى محل العم محمد.. "ذي القمباز الأسود الطويل

والحطة والعقال" ، هل كانت تخاف من حطته أو عقاله أم قمبازه ؟ لعلّها كانت تخاف من لحيته أو حاجبيه الكثيفين .. شيءٌ ما كان يخيفها في رحلتها تلك إلى محله ، ولكن ستها أم حسن كانت تصر على إرسالها لعنده كل شهر في نفس الموعد ، تطلب منه حصتها وحصة أختها من إيجار الأرض والمحلات المؤجرة والتي ورثتها عن أبيها .

لم تكد هدى تصل الدكان حتى سمعت صوتاً ضخماً أجشَّ يصرخ في وجهها ..: مَنْ ؟ هدى ؟

لم تكن قد قالت شيئاً أو طلبت شيئاً بعد .. أطلت من باب الدكان وإذ بصوتٍ مخيف ينطلق من وراء المكتب الضخم الذي يجلس خلفه الحاج محمد بقمبازه الأسود وحطته البيضاء... قائلاً:

- ما الذي جاء بك الآن يا بنت يا هدى ؟

وبصوتٍ خافت لم يخرج من حلق البنت قالت هدى:

- جئت آخذ الفلوس يا عمي..

وهبّ الرجل واقفاً وقد أقبل على البنت الصغيرة بكل عنف..

- فلوس إيش اللي جاي تاخذيها ..

وخافت البنت..لم يكن عمرها قد تجاوز الثماني سنوات، وأختها التي تمسك بيدها لم تتجاوز السادسة من عمرها ، وقد خافت هي الأخرى واختفت خلفها تمسك بذيل فستانها تحتمي

بها..

وأقبل الرجل الضخم عليهما.. لم تر هدى في عمرها أكبر من قبضة يده .. ولا أطول منه ، لم تر أكبر من أنفه أو عينيه.. ولا أكثر سواداً من جلبابه.. كل شيء كان فيه مخيفاً ، وأكثر ما يخيف كان صوته..

- روحي قولي لستك أم حسن ما فيش فلوس .. سمعتِ .. لسّه ما قبضنا الإيجار ولا بعنا البرتقال ، قولي لها دبري حالك مع " هالبنتين الفلاعيص " ..

لم يصدر أي صوت من البنت ..حاولت أن تختبئ خلف أختها الصغرى .. رجعت إلى الخلف خطوات ، هرب منها الصوت ، والسمع ، وجف حلقها ، وأحست بشعر رأسها يقف كالدبابيس يغزُ رأسها بل شعرت بيدها تتيبّس على يد أختها ، وانطلقت تعدو هاربةً من الدكان لا تلتفت إلى الخلف..

وصلت هدى وكانت ستها أم حسن بالباب مرحبّة بحضورها السريع .. ولكن هدى لم تر ستها ولم تر أحداً.. دخلت إلى الداخل وارتمت على الفراش ولم تفتح عينيها أبداً ..

أربعون يوماً كاملاً ظلّت هدى بين الحياة والموت .. لم تفارقها الحرارة .. ولم تنبس شفتاها ببنت شفة .. ظلّت ستها أم حسن قربها تستجوبها ، وهي في شبه غيبوبة ... حملوها إلى المستشفى الفرنسي وقد امتلأ جسدها ووجهها بالبثور الحمراء،

فلم يعرف ما بها .. لعلّه التيفوئيد أو الجدري أو الحصبة أو التيفوس ، كيف فجأة وفي أقل من ساعة تكون البنت في أحسن حال ، تضحك وتلعب مع أختها ، ثم تنقلب إلى ما يشبه الجثّة الهامدة ؟ ما الذي جرى لها .. حاولت أم حسن أن تستجوب الأخت الصغرى ، ولكنها لم تسعفها .. لعل حيّة لدغتها ؟لعل عقرباً قرصها؟ لعلها أكلت طعاماً عليه ذباب وجراثيم ؟.. لعل.. لعل.. والبنت لا تتجاوب ، لا مع الأدوية ولا مع كمادات الماء ولا مع مغلي الأعشاب ، وحتى البثور الحمراء لم ينفع معها غسول ماء الورد مع النشا ...

وهبّ الأهل وقد أفزعهم أن تموت البنت اليتيمة هكذا بكل بساطة..ووصل الخبر إلى العم " الحاج محمد "، وقد علم بأجور المستشفى والعلاج..فجاء يستطلع الخبر .. فهو المسؤول أولاً وأخيراً عن مصاريف هاتين اليتيمتين..فالوقف الذي أوقفه جدّهم يدرّ مالاً جيداً من تأجير الأراضي والمحلات ومن محصول البرتقال والجريبفروت والمزروعات الصيفية والشتوية..وهو المسؤول عن هذا "الوقف" ومصاريفه وإيراداته.. وهو المسؤول عن تغطية مصاريف هاتين اليتيمتين وستهما أم حسن أم والدتهما ..

لعلّ خوفه من موتها غيّر حاله ...

عريس وعروس

عندما نادى الحاج محمد على أبنائه الخمسة، يريد إرسال بعض البيض والبندورة إلى منزل هدى من إنتاج البيارة ، قفز " فهيم " من مكانه ليأخذ الأغراض بنفسه ويوصلها إلى بيت ابنة عمه هدى ..

أنا يابا .. أنا يابا آخذ الأغراض وأوصلها .. ارتاح الحاج ، فابنه هذا وإن لم يكن أكبر أبنائه ، إلا أنه أنشطهم وأكثرهم اهتماماً بالبيارة ومزروعاتها .. بل إنه يتابع مصاريف البيارة والعاملين بها أولا بأول ، ويعرف بالضبط عدد صناديق البرتقال التي تباع في فلسطين ، وعدد الصناديق التي تصدّر إلى البلاد العربية ، أو التي تصدر لأوروبا ولإنجلترا تحديداً .. كان يتعلم إدارة " الوقف " بسرعة واقتدار بل إنه كان يعرف كل فرد من أفراد العائلة من أبناء وأحفاد جدهم الكبير الذي أوقف الأرض هذه لهم ، ويعرف حصة كل واحد منهم فيها ..

حمل " فهيم " ضمة ورد من البيارة وأخفاها مع البيض والبندورة وأخذها لبيت هدى .. أعطى الأغراض لأم حسن ، وسأل عن هدى بخجل ثم – وحتى يخفي ما بهِ – سأل عن أختها بكرية ؛ وغادر بالحال .. ولكنه ومنذ ذلك النهار أصبح يرسل حصة هدى وأختها بكرية في إيراد الأرض والحواصل –المحلات التجارية – في موعدها بل أصبح يرسل معها الدجاج

والأرانب والملوخية المقطّعة ...

بدأت خيوط الحب والهيام تملأ قلبه ...

سنوات – ولم تبلغ هدى بعد الثالثة عشرة من عمرها– طلب فهيم من والده الحاج محمد أن يخطبها له فهو لم يعد يستطيع الفراق عنها ، أو التفكير بأنها قد تكون لغيره من الأنام ...

كان فهيم يتابع هدى في ذهابها للمدرسة ، وعودتها منها، ويتابع ستها أم حسن في تسوّقها من السوق، فيرسل لها العربة الكارو لتوصلها وتعود بها وبالأغراض التي اشترتها وعندما كانت أمه تقيم دعوة لصديقاتها ، كان يصر على أمه أن تدعو أم حسن وحفيدتيها ، عله يشاهد هدى ولو من بعيد ، وعندما أصر أخوه الأصغر أن يذهب إلى مصر للدراسة في جامع الأزهر في القاهرة ، أصر هو على البقاء في فلسطين والدراسة في مدارسها ، ليبقى قريباً من البيارة والوقف!! أو لعلّه يبقى قريباً من ابنة العم ، إلى أن يتحقق حلمه .. ويتزوج أجمل الجميلات..

وقد تحقق ...

لبِس البدلة البيضاء وركب الحصان الأبيض ، وحمل على جناحه عروسه هدى ، ومضى يحلم بأحلى حياة وأهنأ حال ...

سبع ليالٍ ملاح ...

أما هدى فلعلها كانت هي الأخرى تحلم بأحلى حياة وأهنأ حال وقد انتقلت إلى بيت عريسها في البيارة الكبيرة ، وحولها أشجار البرتقال والجريبفروت ، وأخمام الدجاج وبيوت الأرانب، وأحواض الزهور وبرك الماء ..وقد أعد لها عريسها غرفة نوم رائعة في بيت العائلة.

كان العرس قد أقيم على أكبر بركة للماء في البيارة ، وقد ملأها فهيم بالتفاح والبرتقال والزهور والورود ، ثم أضاءها بالمصابيح من كل جانب ، بل لقد أضاء ممرات البيارة بالأشرطة الكهربائية الطويلة ذات المصابيح الكهربائية الملونة، ووقفت الطباخات تطبخ الخراف والأرز للضيوف والأقارب على مدى أيام العرس... ووقف الأقارب وكل العمال في البيارة:البياريين والبياريات لإحياء عرس هذا الشاب على أجمل بنات يافا... وكانت نساء العائلة يتبارين ليساعدن في زفاف هدى ، بينما تقوم " الماشطة " بتزيين العروس وتمشيط شعرها ..

في يافا كان شارع اسكندر عوض وشارع جمال باشا ، محط أنظار أي عروس لشراء جهازها منه ..ولم تبخل أم حسن على حفيدتها بأي شيء.. فالبنت جميله وكل شيء "بيلبقلها" ويزيدها جمالاً ، والأعراس في يافا يعني " سبع ليالٍ ملاح" وسبع بدلات فرح ، ترقص بها العروس مع الراقصات المحترفات

"الجنكيات" .. والعروس حلوه ويليق بها الفرح ، والعريس شاب مليء لا ينقصه المال ولا الشباب ولا الرجولة ، ليجعل من عرسه حديث المدينة إذن ..

مع الثورة

واحد فقط من أفراد العائلة لم يحضر العرس .. إنه "خالد" ، خالد الذي لم يكن لديه أي وقت للأفراح والأعراس وإضاعة الوقت .. كان عمله يستغرق كل وقته .. فهو رجل السياسة والنضال والدفاع عن الوطن ، كانت فلسطين في تلك الفترة عام ١٩٣٠ تغلي بالأحداث السياسية العنيفة:

" بلفور " أعطى وعده لليهود بإقامة دولة لهم في فلسطين عام ١٩١٧ .. والحرب العالمية الأولى وضعت أوزارها وانتصر الإنجليز والفرنسيون وقسّموا إرث الدولة العثمانية فيما بينهم..وعصبة الأمم المتحدة أعطت الإنجليز سلطة الإنتداب على أرض فلسطين ، فقاموا بتعيين مندوب سام إنجليزي لحكم فلسطين ، وبدأوا بالسماح للهجرة اليهوديةً إلى فلسطين ، فتدفق مئات الآلاف من المهاجرين اليهود في سفن كبيرة إلى سواحل فلسطين ، وبدأ الإنجليز فعلاً بتطبيق وعد بلفور على

الأرض الفلسطينية ، فوضعوا المدراء الإنجليز في معظم الدوائر الرسمية المهمّة .. وفرضوا اللغة الإنجليزية ، ثم اللغة العبرية على كل الوثائق الرسمية وسندات التسجيل "كواشين" الأراضي والعقارات والبيوت والمحال ، وكذلك أسماء الشوارع وشهادات الميلاد ومصلحة الضرائب ومصلحة المياه .. باختصار كل صغيرة وكبيرة في حياة الفلسطينيين تأثرت مباشرة من حكومة الإنتداب البريطاني وسياستها في تهويد البلاد.

وكان ميناء مدينة " يافا " أهم موانئ فلسطين ، وفيه يعمل العمال العرب لحمل تجارة بلدهم وتصديرها إلى العالم أو لاستيراد البضائع من أنحاء العالم إلى يافا وفلسطين وشرق الأردن ، فكانت السفن تقف في الميناء ، إما لحمل البضاعة من فلسطين ويافا أو لإنزال البضاعة إلى يافا وفلسطين.

فكيف سيتاح للسفن التي تحمل المهاجرين اليهود بالنزول إلى ميناء يافا؟ وكيف سيرضى العمال العرب باستقبالهم وإدخالهم إلى أراضيهم ؟.. بل كيف سيرضون بإدخال الأسلحة لليهود ويحملونها بأيديهم لقتل إخوانهم ؟

كان "خالد" شقيق " فهيم " قد أدرك الخطر الذي يحيق بفلسطين ، فقرر أن ينذر نفسه للعمل الوطني لإنقاذ بلاده ، فعمل مع السياسيين والثوار الفلسطينيين للسعي لوقف الهجرة اليهودية لفلسطين ، ومنع دخول المهاجرين اليهود أو أي أسلحة

لهم إلى فلسطين ، وكان يعمل مع زعيم فلسطين " الحاج أمين الحسيني " ومع المناضلين في كل مدن فلسطين الكبيرة مثل القدس ، نابلس ، طولكرم ، حيفا ، عكا ، غزة ، عسقلان ..

كم مظاهرة قادها خالد أو شارك فيها ؟ كم لقاء جماهيري لرفض الإحتلال والهجرة اليهودية قام به خالد ؟ كم لجنة للمقاطعة والعصيان ضد الإنجليز أنشأها خالد ؟ كم اجتماع مع زعماء الثورة والثوار عقده خالد؟

كان دوره كبيراً ، بحيث لم يستطع حتى حضور زفاف أخيه "فهيم" على ابنة عمه "هدى" ..

بعد مدة ، وعندما سافر الحاج أمين الحسيني وعدد من القادة السياسيين والثوار إلى العراق ، وذلك لدعم الثورة وتدريب الثوار ، سافر خالد معه ، فقد كان ساعده الأيمن، لوطنيته من جهة ، وتمكنه من اللغة الإنجليزية من جهة أخرى.. وعندما عادوا إلى فلسطين ، كان استقبال الشعب لهم عارماً ، فأقيمت الأفراح ومهرجانات الاستقبال في كل بيت فلسطيني وفي المدارس والجوامع والقاعات في طول البلاد وعرضها.

وتألق بيت فهيم في البيارة بمصابيح الكهرباء والزينة بعودة زعيم فلسطين وخالد ..

بكرية تتزوج

عائلات يافا معروفة لبعضها البعض ، صحيح أن يافا هي " أم الغريب" فأي شخص غريب عن عائلاتها الأصلية، يعيش فيها بسهولة ويسر ، تحتضنه وتحنُّ عليه كأنه ابنها ، وصحيح أن معظم سكان فلسطين نفسها كانوا يحلمون دوماً بالسفر إلى يافا ، ورؤية بحرها الجميل والتنعم برمل ساحلها الناعم .. وصحيح أن الكثيرين من سكان المدن العربية مثل بغداد والقاهرة ودمشق وعمان ، وبيروت ، كانوا يحبون القدوم ليافا للتسوق في أسواقها، والتمتع بحضارتها وتطورها الثقافي، ولكن عائلاتها الأصلية كانت تعرف بعضها البعض . تلك عائلة الشيخ شعبان ، وعائلة القليوبي ، وعائلة القولاغاصي ، والقمبرجي ، والدباغ ، والعزوني ، وعبدالرحيم ، والدجاني ، والحجاج ، وبيدس ، والسعيد ، وهيكل ، والدرهلي ، وشهاب الدين ، وسكجها ، والحاج عبد وغيرهم الكثير....

وكانت العائلات المسيحية تقارب في العدد العائلات المسلمة.. تلك عائلة موندو، والجلدة،وجديّ ، وعيسى ، وغندور، وغرغور، وإليا ، وعودة ، والخوري ، ولم يكن هناك فروق في العادات والتقاليد بين المسلمين والمسيحين.

من أهم مُلاك العقارات في يافا ، " الشيخ عبدالله العزوني "
كل قرش يجمعه ، يضعه في الحَجَر ، فيبني البيوت ويرفع الأسوار
ويضيف الطوابق ، طابقاً وراء الآخر،يسكن ، ويُسكّن أولاده ،
ويؤجر للغريب . يؤمن أن الحجر أهم من الذهب والنقد ، ولا
يكبر عنده ولد أو بنت إلا ويؤمّن له البيت ، حتى قبل أن يتأهل ،
أي قبل أن يتزوج .. فالبيت أهم من الزواج ويأتي قبله ...

وقبل أن يكبر ابنه محمود ، بدأ يعد بيته ، ليكون جاهزاً
عندما يطلب الزواج ..

ولكن محمود الفتى ذا الأحد عشر عاماً ، كان كثير اللعب في
الساحات ، وذات يوم هبّت عاصفة هوجاء ، أثارت الرمال في
وجه محمود فامتلأت عيناه بالرمل ، وبدأ يفرك عينيه بيديه.
وعاد إلى المنزل ، ولا يزال الرمل يملأ عينيه وهو يفركهما
بيديه، وأخذ ينادي على والدته ، وهي قربه ولا يراها .. وضجت
العائلة وخاف الأب على ابنه الوحيد ، وحمله إلى الطبيب ، ولكن
العينين كانتا قد تشققت قرنياتهما ، ولم يعد بالإمكان علاجهما ،
وما هي إلا أيام حتى فقد الطفل بصره نهائياً ، سافر به والده
إلى مصر للعلاج ، ولكن دون جدوى. مصر التي كانت الرحلة
إليها متعة لأي شخص ، كانت هماً وغماً لهذه العائلة الحزينة ،
فكيف يفقد وحيدها بصره وتنعم العائلة بالهناء والحبور...؟!

وكبر الولد ، وقوي عوده ، وقويت شخصيته ، وطلب الزواج.. وكأن "بكرية" كانت بانتظاره ..كانت فتاة بسيطة ، يتيمة ، متوسطة الجمال ، إذا جلست قرب أختها هدى مال الميزان لصالح أختها لحسن طلتها وطولها ونضارة بشرتها .. وتقدم لها هذا العريس ، من عائلة معروفة ولها من العمارات والعقارات والأراضي الزراعية ، ما يجعل أي عائلة تتمناه ، ولكنه كفيف .. فكيف تتزوجه وتعيش معه العمر كله ؟

أيام وتمّ الزواج ، وأقيمت الأفراح،وما هي إلا أشهر حتى كان على يدي "بكرية" البنت البكر قبل أن تكون أختها قد أنجبت بعد!! فربنا هو الذي يعطي ويمنع ، ويرزق ويقدر ، وهو على كل شيء قدير ..

خالد في السجن

عُرض على فهيم العمل بوظيفة "محترمة" في دائرة الأراضي والمساحة ، كونُه قد درس "المساحة" وهو خبير بالأراضي ووضع حدودها ، كما أنّ له معرفة جيدة بالمدن والقرى الفلسطينية ، ويافا تحديداً .. والأهم من هذا وذاك أنه يتقن اللغة الانجليزية ..وهذه الدائرة ، التابعة لحكومة

الإنتداب البريطاني ، كانت تتطلب من الموظفين فيها، أن يتقنوا اللغة الإنجليزية .

كان على فهيم إعالة عائلته وزوجته وشقيقه الذي يدرس في القاهرة ، وأن يدعم شقيقه في النضال . والوظيفة الحكومية تؤمن الراتب الثابت المجزي ، والمركز الرفيع ..

اختلى الأخ خالد بأخيه فهيم .. قال .. سنمنع التجار من بيع محصولاتهم الزراعية سنمنع الصيادين من صيد السمك، ونقفل المحلات التجارية في الأسواق . وسنوقف العمل في الدوائر الحكومية والمدارس..زعيم فلسطين الحاج " أمين الحسيني" والقادة السياسيون في طول البلاد وعرضها قرروا إعلان الإضراب العام ومقاطعة حكومة الانتداب الانجليزي.. فماذا نحن فاعلون ؟

لم يكن من السهل على فهيم الالتزام بالإضراب ، وإيقاف أعماله التجارية والزراعية والوظيفية ..فهو مسؤول الوقف الخيري من محلات وأراضٍ ، وعليه تأمين إيراد لكل المستفيدين من الوقف، وأهمهم زوجته وأختها بكرية ..وهو المسؤول عن تصريف منتجات البيارة ، خضارها وزهورها وبرتقالها ، وحتى دواجنها وحيواناتها ... وهو الموظف في ساعات الصباح في دائرة الأراضي والمساحة ، ويخشى إن التزم بالإضراب أن يفقد وظيفته .. بيته بحاجة إلى المزيد من النقود ، وأخوه في

الأزهر في القاهرة يطلب هو الآخر مزيداً من النقود لدراسته وإقامته .. والثوار يطلبون الدعم المادي لشراء الأسلحة للدفاع عن أراضيهم وبياراتهم .. بيارته بالذات بحاجة إلى أكثر من حارس ، لحماية أطرافها من هجوم اليهود عليها..من سيؤمن كل ذلك وكيف ستسير الأمور يا تُرى ؟

والتزم جميع سكان فلسطين بالإضراب ، التزموا بتسليح الثوار ، وامتلأت السجون بالوطنيين الأحرار ، واعتقل خالد ورفاقه وزج بهم في السجون : ينقلونهم من سجنٍ إلى سجن. ولمّا علم الإنجليز أن السجناء يقومون بدورهم النضالي من داخل السجن ، قاموا بنفي قيادات الثوار إلى خارج فلسطين كلها ، إلى جزيرة بعيدة تدعى سيشل في المحيط الهندي ، مقابل الساحل الإفريقي وجزيرة مدغشقر ودولة الصومال تحديداً. نفى الإنجليز خالد وزعماء العمل السياسي الفلسطيني إلى هذه الجزيرة القاحلة التي لا يسكنها أحد ، والمليئة بذكريات زعماء عرب آخرين كانوا قد نفوا إليها من قبل ، أهمهم زعيم مصر "أحمد عُرابي" وصحبه .. فهؤلاء الإنجليز وبعد أن استولوا على هذه الجزيرة ، أصبحوا ينفون إليها كل من يعارض سياستهم الاستعمارية...

في عام ١٩٤٧استعدّ الإنجليز لترك فلسطين ، ولكنهم وقبل تركها كانوا قد زرعوا فيها العصابات الصهيونية المدجّجة

بكافة أنواع الأسلحة ، بينما حرّموا على العرب فيها اقتناء السلاح، حتى السكاكين !! وعندما أفرجت الحكومة الانجليزية عن الزعماء السياسيين في المنفى ، كان ذلك متأخراً جداً ، فقد استولت العصابات الصهيونية على فلسطين وتم تهجير أهل يافا وأقارب خالد من بيوتهم وأراضيهم ..

إنهاء الإضراب

ضاق الوضع الاقتصادي على أهل فلسطين ، وتعطلت أعمالهم خصوصاً طبقة العمال "والعتالين" . وفي أسفل الدرج ، وخلف الباب الرئيسي وضع "فهيم" برميلين كبيرين: واحد للسكر والآخر للطحين ، كانت هدى مسؤولة عنهما ضمن مسؤولياتها الكبيرة في البيت . ولا يمضي يوم إلا وتغرف منهما لمن يطلب طحيناً أو سكراً . ولا يمضي يوم إلا وتتبادل مع الجيران والأقارب ما لديهم من لحم خروف أو دجاج أو بيض أو خضار..فإذا توقف البيع بسبب الإضراب العام ،فهناك المبادلة بين الجيران والأقارب..فالإضراب يجب أن ينجح ..

وبعد أشهر، تدخلت الدول العربية والزعماء العرب لإنهاء الإضراب ووقف معاناة الناس ، وطمأنة الفلسطينيين بأنهم سوف يعملون جاهدين على إلغاء وعد بلفور ووقف الهجرة

اليهودية ،وأرسل الزعيم " الحاج أمين الحسيني " لأهل فلسطين رسالة لوقف الإضراب فتلقاها أهل يافا بالحماس الشديد..صحيح أنهم صبروا ،لكن للصبر حدود.. وعلى الحياة أن تعود لمجاريها ..على الشباب أن يعودوا لأعمالهم ، والطلاب لدراستهم ، والعمال لمحالهم والصيادين لصيدهم.

وعادت الحياة ولكن ليسَ كما يجب ، فالحرب العالمية الثانية كانت على الأبواب ..ومن ثورة لثورة ، ومن حرب لحرب ، ومن مصيبة إلى مصيبة كانت تمضي الحياة بهدى وعائلتها .

لقد استمر الإضراب – عام ١٩٣٦ – ستة أشهر كاملة ، التزم فيها الشعب بما قرره زعماؤهم ، فلا بيع ولا شراء ولا مدارس ولا دوام في الدوائر ، فقط سمح للطوارئ في المستشفيات "وأصحاب الأفران " لخبز الخبز ، وبعض الأمور المهمة لحياة الناس .

زغرودة أم حسن

أنجبت هدى البنت وراء البنت .. وكانت بكرية أختها تنجب البنات دون الذكور أيضاً.. هذه تنجب بنتاً وتلك تنجب بنتاً أخرى .. وستّهم أم حسن لا تعرف كيف توزع حزنها وأسفها على الأختين . كان الاحتلال والانجليز وهجرة اليهود في كف

أم حسن ، وفي الكف الأخرى " بنات" هدى وبكرية .. فمتى يرزقهم الله بالذكور . أنجبت كل منهما ست بنات ولم يأتِ الذكر بعد .. يا الله : أنت ترزق من تشاء الذكور وتهب من تشاء الإناث ، وتجعل من تشاء عقيماً ، فلا تحرم حفيداتي اليتيمات " الولد" الصبي:الذكر، ليكون لهما عوناً في هذه الحياة .. يارب أنت الرزاق الوهاب فارزقهما الصبي أكحل به عيني قبل الممات .

ظلت أم حسن وفيّة لحفيدتيها ، وفي تلك الليلة ، وقفت البنات ذوات الأعوام العشرة والتسعة والثمانية والسادسة والأربعة من العمر ، قرب ستهم أم حسن ، يدعون معها أن تنجب أمهن ولداً. قالت ستهم : اقعدوا يا ستي يا حبيباتي أدعوا الله أن يرزقكن وأُمكن ولداً ..فدعاء الطفلات الصغيرات مجاب ... لم تكن الصغيرة ذات العامين تفهم الأمر،ولكنها جلست مع أخواتها وهن يدعينَ الله أن تقوم أمهن بالسلامة وتنجب أخاً لهن ..

وفي منتصف الليل ، خرجت أم حسن إلى الشرفة وأخذت في إطلاق الزغاريد الواحدة تلو الأخرى ، تدير وجهها إلى كل الجهات وتزغرد .. وأضيئت بيوت الجيران وخرج أهل الحارة بمن فيهم العمال والحراس ، وانطلق " فهيم" وراء العجوز يسكتها ويدخلها من الشرفة ، فقد علم الجميع أن الصبي وصل، وأن هدى قد أنجبت الذكر المطلوب ..

وامتلأت البراميل بالطحين والسكر ، وذبحت الخراف ووزع اللحم والأرز على الغريب والقريب ، وأقيمت حفلات "المولد" وقراءة القرآن ، فساعات الفرح في حياة الفلسطينيين كانت قليلة ، واغتنام الفرص للفرح كان يُنتزع انتزاعاً .. وسافر الأب إلى مصر بالقطار من يافا إلى القاهرة ، وأحضر الهدايا والألعاب لبناته ولمعارفه "وصَمَدتْ" البنات الكبيرات العرائس الحلوة في غرفهن وعلى أسرَّتهن ..

وكان لبنات بكرية النصيب في تلك الهدايا ، فهدى لم يكن يهنأ لها بال ، إلا إذا شاركت أختها بسعادتها وهنائها ...

الانتقـال

في صباح يوم ١٩٤٧/٩/١ ،دخل فهيم متجهماً على زوجته: قال : لقد نقلوا وظيفتي من يافا إلى الرملة وسننتقل خلال أيام.. فماذا تقولين ؟

صدمت هدى .. فكيف ترحل إلى الرملة ؟ ولمن تترك بيتها؟ وكيف ستبتعد عن أختها ، وستها أم حسن من سيرعاها في شيخوختها ؟ ومدارس البنات .. فالكبيرة متفوقة في دراستها وكذلك الثانية .. والثالثة على الأبواب لدخول المدرسة .. والمدرسة قريبة ، يذهبن إليها سيراً على الأقدام، وجميع المعلمات يعرفن بناتها ويعاملنهنّ أحسن معاملة، فكيف سترحل

إلى الرملة؟..وهل سيكون هناك مدارس بكفاءة مدارس يافا ؟ يافا عروس البحر..يتركونها إلى الرملة ؟ صحيح إنها لا تبعد إلى الشرق الجنوبي من يافا أكثر من بضعة كيلومترات وصحيح إنها كانت عاصمة فلسطين قديماً أيام حكم الأتراك ، ولكنها مدينة لا بحر فيها ولا ساحل .. فكيف ستكون الحياة فيها ؟

كان الانجليز قبل عام النكبة يحاولون فصل الدوائر الحكومية إلى قسمين : قسم للموظفين العرب ، وقسم للموظفين اليهود ، وذلك تمهيداً لتقسيم فلسطين ، ولذلك أقاموا دائرة الأراضي والمساحة في الرملة للموظفين العرب ، ونقلوا إليها فهيم ، وأنشأوا أخرى لليهود في تل أبيب ، كانت نواة للدولة اليهودية ودوائرها الرسمية.

قبل سفرها وأولادها ، وبعد أن ودعت هدى ستها أم حسن، أسلمت أم حسن الروح .. نامت ليلتها تلك ولم تستيقظ ..هل ساءها أن تسافر حفيدتها الغالية وتتركها ؟

في مقبرة يازور أعدَّ فهيم القبر " لأم حسن " كانت عزيزة عليه ، فهي التي راقبت حبّه لابنة عمه وحفظت سرّه .. وهي التي رعت ابنة عمه وحنت عليها وعلّمتها وألبستها .. كانت بمكانة الأم والأب لها ..في دراستها أوتعليمها قراءة القرآن. وهي التي تابعتها بعد الزواج وبعد الإنجاب وكانت تخافُ عليها

من أي نسمة .. وها هي تودع الحياة قبل أن تسافر حفيدتها إلى الرملة..

في مقبرة "يازور" أعدّ فهيم القبر واهتم بمكانه وبنائه.. اختار مكاناً جيداً ، وقال في نفسه : كانت تحب الحياة " وشمّة الهواء" ، وسأعمل لها قبراً ملائماً على متسع من الأرض وعلى شارعين !! بنى لها القبر ، " فستقية " غرفة مرتفعة عن الأرض ولها طاقة ، كأنها شباك يُقفل بالإسمنت حسب وصيتها ..

في تلك الأثناء ، ولحسن حظ هدى، كانت ابنة بكرية الكبرى قد تزوجت وهي بعد في الرابعة عشرة من عمرها وانتقلت للسكن مع زوجها إلى اللد : اللد المدينة الأقرب إلى الرملة ، فأحست الأختان أن انتقال هدى إلى الرملة سيكون فيه جانب ايجابي فقد تكون أقرب إلى البنت حديثة الزواج!!

ولكن القدر كان يخبئ لكلٍ منهما أمراً آخر ...

الرحيل ثمّ الرحيل

أُهملت البيارة .. فخالد في المنفى مع قادة الثورة .. وفهيم في الرملة في وظيفته .. وأحمد بعد أن أنهى تعليمه في القاهرة، عمل بدائرة الأراضي والمساحة ، في شمال فلسطين، وحُراس

البيارة انتقلوا مع الثوار إلى الجبال للاختباء عن أعين الجنود الانجليز..والانجليز هدموا شارع اسكندر عوض وجزءاً كبيراً من يافا القديمة انتقاماً من الثورة والثوار ...وميناء يافا أضرب عن العمل لاكتشاف العمال العرب العاملين فيه كميات من الأسلحة مهرّبة لتسليح المهاجرين اليهود... والسفن اليهودية تفرغ حمولتها من المهاجرين اليهود في شمال يافا وبعيداً عن أعين العرب ، فينتشر المهاجرون في ضواحي يافا ، ويبنون بين عشية وضحاها مساكن لهم .. وحكومة الانجليز تسهل لهم السكن والبناء والتسليح وتحرمه على العرب .. والمشاكل تتفاقم..ومدينة جديدة يهودية تبنى شمال يافا كان اسمها تل الربيع ، فسمّاها اليهود تل أبيب..والمسلحون اليهود يهاجمون يافا من تل أبيب ، والثوار يطلبون المعونة من الدول العربية لمدّهم بالسلاح للدفاع عن مدينتهم ، والعرب يَعِدونَ بذلك ولا يوفون..والأوضاع تتدهور .. وحامية يافا تصرخ ولا من مجيب.

في الرمله ساء الوضع على العائلة أكثر وأكثر ، فالبيت "مطرف" في طرف البلدة ، ولا جيران ولا معارف ، والجنود الانجليز يروحون ويجيئون من حديقة المنزل ، باتجاه "الكوبانيه" مقر قيادتهم .. وفي الليل تشاهد تدريبات عسكرية مستمرة ، يؤكد الجميع أنهم من اليهود يتدربون على استعمال السلاح، حركة عسكرية مستمرة .. والبنات لا يستطعن الخروج

أو الدخول إلى المنزل .. فكيف يمكن حماية الزوجة والبنات في مثل هكذا موقع ؟ .

كان الأمر صعباً .. وتزايد تذمر هدى من الوضع .. البنات يا فهيم .. البنات .. كيف بدنا نحميهم كبروا ، أصبحوا صبايا، كيف نحافظ عليهم ؟ .

هل كان فهيم وهدى يهربان من قدر إلى قدر ؟ هل كانا يهربان خوفاً من الإنجليز واليهود ، أم أن وظيفة الأب كانت تسمح له بالتنقل بسهولة بين مدن فلسطين ؟ حمل فهيم أثاث بيته – من كراسٍ وطاولات وأسرّة نوم وفرشات وسجاد وخزائن وأدوات مطبخ ، حتى المؤن الغذائية الكثيرة التي جمعها خوفاً من الحرب ، وانتقل بها من الرملة إلى رام الله، هل كانت رام الله فعلا مدينة أكثر أمناً من يافا أو الرملة ؟ أم أن الله يُسيّر الإنسان ولا يُخيّره ؟؟

حملت الشاحنة "العفش" ، وجلست البنات قرب "الأثاث" وفوقه يدعمنه ويثبتنه خشية السقوط .. وجلست الأم في المقعد الأمامي للشاحنة تحتضن ابنها الصبي وقد أصبح عمره سنتين وابنها المولود الجديد ، ولم يكن قد مضى على ولادته بضعة أشهر..كانت الطريق وعرة والصعود إلى رام الله يزيد على البنات العبء لحماية الأثاث من السقوط، وكان منظر الجبال العالية والوديان يشعرهن بالخوف الشديد،وهنّ لا يعرفن من

الدنيا إلا يافا السهلة المنبسطة والأراضي الخضراء الجميلة. ولم يمض على وصولهم إلى رام الله شهر أو اثنان ،حتى سقطت مدينة يافا وقتلت حاميتها !! وأجبر أهلها الباقون على الرحيل منها ..

لم يعرف أحد أين رحل الآخر!

أمسكت بكرية بيد بناتها من جهة، وبيد زوجها الكفيف من جهة ، وانطلقت لا تدري إلى أين تتجه .. هل يكون الأمان عند ابنتها في اللد ؟ أم عند أختها في رام الله ؟ جارهم صاحب المراكب البحرية سافر إلى الإسكندرية في مركبه ، وأمّنهم على بيته لحين عودته .. وعمة زوجها سافرت وأبناؤها الصغار إلى سوريا ، على ظهر مركب غادر ميناء يافا وعليه مئات النساء والأطفال .. والجيران الآخرون غادر أبناؤهم وزوجاتهم إلى غزة في الجنوب .. بعضهم بقي في غزة ، وبعضهم - كما علمت بعد ذلك – غادروا بشاحنات إلى مصر .. والد زوجها الشيخ عبدالله رفض وبشدة أن يغادر بيته وبياراته وعقاراته التي بناها بيده طوبةً طوبة وحجراً بحجر .. قال لها إرحلي يا بنتي مع زوجك الكفيف ، وأنا سأبقى هنا في أرضنا ورزقنا .. وسنتصل بك حين تهدأ الحرب وتعودين إلى بيتك إن شاءالله معززة مكرمة .. لاتخافي على الأثاث المهم أن تصلي ابنتك في اللد .

أكثر من نصف سكان يافا-المدينة الأكبر في فلسطين والتي كان عدد سكانها يزيد عن مائة وعشرين ألف نسمة -تركوها في أكبر هجرة قسرية ، مشتتين بين الجنوب أو الشمال أو الشرق أو الغرب عبر البحر..كلهم تركوا بيوتهم وبياراتهم تحت القصف الشديد والدمار والموت من جهة، وتحت الأمل الكبير بدخول الجيوش العربية لنصرة الثوار الفلسطينيين من جهة أخرى ...

لما وصلت بكرية وبناتها وزوجها إلى اللد..كان الجميع يؤكد وصول القوات العربية والجيش الأردني إلى اللد لحمايتها، وقف الرجال في ساحة اللد يصفقون للجيش الأردني ذي الحطات الحمراء ويستقبلونه بالزغاريد والهتافات .. ولكن الجيش الأردني لم يكن جيشاً أردنياً .. كان الجنود يتحدثون بلكنة غريبة ويوقفون الرجال على الجدران ، ويطلقون عليهم النار.. كانوا جنوداً يهوداً بلباس الجيش الأردني لخداع الفلسطينيين !! وانكمشت بكرية وبناتها وزوجها بزاوية الدار وفتحت رندة - صاحبة الدار - الباب لعسكري ظنته فِعلاً عسكرياً أردنيًا ومعه آخر لم يتكلم .. قال لها : يللّا خبيبي أُترك الدار أنت وأهلك .. وأعطينا المفتاخ ..

بكل الدهشة التي في الدنيا ، وكل العجب وكل الاستغراب،سألته:كيف؟ولماذا ؟كيف أترك داري أنا وأهلي ..

وأين نذهب ؟ هذه داري وهذا أثاثي ..

كان أثاثها لا يزال جديداً ، فهي عروس لم يمض على زواجها أكثر من سنة .. غرفة نومها جديدة اشترتها من أحسن محلات يافا .. غرفة طعامها جديدة لم يجلس عليها بعد، الضيوف أو الأقارب .. البرادي لا تزال على حالها ، غطاء السرير ، أهداها إياه " سلفها " : أخ زوجها ، وقد حضر مؤخراً من أمريكا وأهداها إياه..كيف؟ كيف تترك جهازها وملابسها التي خاطتها للعرس، الفساتين الطويلة والقصيرة .. فساتين السهرة وبدلات النوم..أحذيتها ؟ كانت كل عروس في فلسطين تتجهز جهازاً كاملاً جديداً بدءاً من الملابس الداخلية وحتى الأحذية،كيف تترك كل هذا ؟ وأين تذهب ؟ جمعت شجاعتها وقالت له ، ولكن هذه داري فكيف أتركها ..؟

قال الجندي اليهودي بكل بساطة : روخي خبيبي إلى عمان إلى الملك.. فنحن اشترينا هذه البلاد وهذه الدور وهذا العفش.. دفعنا عن كل فرد منكم ديناراً ونصف .. روخي وسوف يعطيك الأكل والخبز والمأوى..

وأتبع كلامه بعبارات من النار ، وصوبّ هو والجندي الآخر البنادق عليها ، فانكمش الجميع على بعضهم بعضاً ، ثم فتح لهم الباب وأمرهم بالخروج ، فانصاع الجميع للأمر ..

كان الفصل صيفاً ، والشمس ضُحىً ، فأمسكت البنت بيد أبيها وحماتها – والدة زوجها – وأمها وأخواتها وانطلقت إلى

حيث أشار الجندي اليهودي!! ويا للحيرة !!.

لم يكن زوجها في البيت ، فقد تم تجميع الرجال في ساحة المدينة .. وظل اليهود المسلحون يطلقون الرصاص على النساء والأطفال والشباب،لترويعهم وتخويفهم حتى يغادروا بيوتهم بسرعة أكبر ، ويتجهوا إلى طريق واحد إلى الشرق .. إلى خارج اللد باتجاه الأردن..

في أثناء الطريق وكلما ضعف الناس ، وتكاسلوا عن المشي السريع ، كانت طلقات الرصاص تطلق عليهم من الخلف ، فيسقط من يسقط ويسرع الباقون بالمشي .. وبازدياد قوة الشمس ، ازداد عطش الناس .. لم يأخذ أي من أهل اللد معهم جرعة ماء أو كسرة خبز .. أخرجوهم من بيوتهم بسرعة هائلة فلم يأخذ أحد " زوادة " للطريق ، واستمر الناس بالمشي وازداد التعب والعناء .. بعد ساعات لم تستطع حماة رندة مواصلة السير، حملها ابنها الشاب فلم يستطع المسير .. وتشاور الجميع بأمر الأم العجوز .. كيف نتركها وأين ؟ وارتمت العجوز تحت جذع شجرة ، وأسلمت أمرها لله وحده .. وواصل الجميع المسير.. فالركب لا ينتظر أحداً...

على طول الطريق ، وعلى مدى عمرها ، ويمكن بعد وفاتها ، سيظلّ السؤال التعجبي في ذهن بكرية ورنده ومحمود والأولاد وأهل اللد .. من باع من ؟ ومن اشترى من ؟ ولماذا ؟

استمر الشباب والنساء والأطفال والرجال بالسير .. صعوداً أحياناً وهبوطا أحياناً .. يتعثرون بالحجارة أحياناً أو تضغط أحذيتهم على أرجلهم أحياناً .. ولكن العطش كان سيد الموقف بلا منازع.

في ذلك المساء ، وعندما وصلوا إلى أول قرية تصادفهم وعندما شاهدوا أول بئر ماء ... كانت الكارثة .. لقد هجم الجميع على شربة الماء ....!!

كيف يُذلُّ المرء أمام عطشه ، وأمام جرعة ماء؟

كيف يتوحش المرء أمام عطشه وتتوحش مشاعره ؟.. هل يعطي الشربة لأمّه أو زوجته أو ابنه أو لنفسه ؟ من له الحق في الجرعة الأولى؟؟

المفـاجـأة

دبّر الناس حالهم ، وناموا تحت الشجر ، قرب بيوت أهل القرية التي وصلوها ... أعطاهم أهل القرية بعض الخبز والزيتون والماء ... وفجأة وبعد أن ارتاح أحد الشباب وشاهد حماراً يجره صاحبه ، طلب من صاحب الحمار أن يستأجر الحمار لمدة ساعتين فقط ، وأخذ الحمار وعاد إلى الطريق التي

وصل منها .. عاد إلى أمه العجوز التي بقيت تحت الشجرة .. وصلها وقد دبّت فيها الروح بعد زوال التعب... وجدها جالسة وحدها على قارعة الطريق ، فحملها وأجلسها على الحمار وعاد بها إلى الجموع ، الذين هللوا وكبروا وقد رأوها حيّة ترزق .

في الطريق مالت العجوز على أذن ابنها وقالت ..أتدري يا بني ماذا يوجد في هذا الحزام الذي ألبسه على خصري ؟

لم يكن يدري ...

قالت فيه أربعين ليرة ذهب ، كنتُ أحتفظ بهم لمثل هذا اليوم..

كانت هذه الليرات الترياق الذي سدّ رمق العائلة في شتاتها..

وياله من ترياق .. ويا له من شتات ..

وظلّت بكرية تردد أين رام الله .. وأين بيت أختي هدى ؟

طوال الطريق كانت بكرية تتطلع للوصول إلى بيت شقيقتها هدى في رام الله . وعندما وصلت إلى رام الله ، كان الحال لا يسر عدواً أو صديقاً ، في ساحة المنزل عشرات بل مئات من المهاجرين يجلسون على التراب يفترشون الأرض ويلتحفون السماء .. حال أصعب من حال ... واستقبل فهيم وهدى بكرية وأفراد عائلتها .. كان الحمام الساخن العلاج الأول لتعب الجسد ثم كان الفراش والطعام .. وبعدها بدأ التفكير بالملاذ الآمن ..

وقليلاً قليلاً كانت العائلات تنسحب إلى أماكن أفضل من العراء.. بعض العائلات ذهبت إلى المدارس وبعضها ذهبت إلى الجوامع ، بعضهم سأل عن أقاربه فسعى إليهم .. ولكن الأغلب ذهب إلى عمان ، حيث وكالة الغوث "الاونروا" تسجل اللاجئين في قوائم وتحصيهم وتعطيهم بطاقات لاجئين : "كرت مؤن" ، كي يتمكنوا من أخذ حصص تموينية من الزيت والطحين والسكر والجبنه والتمر ، لتعينهم على الحياة ...

قالوا إن وكالة الغوث " الأُونروا" ستعين اللاجئين لحين عودتهم إلى ديارهم .... ويجب أن يسجل بها كل لاجئ ليحفظ هذا الحق بالعودة .

وابتدأت رحلة العذاب ..

حاول فهيم أن يعرف أين إخوته وأخواته وعائلاتهم .. فلم يفلح في ذلك ، لقد هاجر واحد من إخوته إلى سوريا مع زوجته وأبنائه .. وهاجرت أخواته البنات إلى مصر مع أزواجهن ، وهاجر أخوه من شمال فلسطين إلى مدينة الزرقاء في الأردن، وعاد أخوه خالد من المنفى إلى لبنان ..كل الأقارب تشتتوا في الأقطار العربية المجاورة..ولم تعد وسيلة الاتصال بينهم والاطمئنان عليهم ممكنة .. وهو يحسُّ أن عليه مسؤولية كبيرة تجاههم.. فما العمل ؟

سنوات الضياع

هي سنوات الضياع بلا شك ، يتمسك المرء بمن هم حوله، خشية أن يفقدهم هم الآخرين ، ويستمع إلى أخبار الأقارب الأبعد عن طريق الراديو ورسائل الشوق والتطمين ... يموت الواحد في الغربة فلا يجد من يواسيه أو يعزّي به .... الغربة، الغربة ، الغربة :الغربة عن الوطن عن البيوت عن الأهل عن الجيران ...

لم تكن هدى ولا بكرية ولا فهيم ولا أي فرد في الدنيا يتصور أن يؤول المآل إليه هكذا .. مدرسة الزهراء التي كانت البنات يذهبن إليها بالكلسات البيضاء والمريول الأسود والقبة البيضاء المنشّاة ، يصطففن في الساحة ويدخلن الصفوف على أنغام البيانو الحي تعزفه معلمة الموسيقى ، أصبحت ذكرى تشتاق إليها البنات ، وهاهي الأيام تمر ولا مدرسة ولا تدريس ...الأولاد بالشوارع ، والرجال دون أعمال .. والأحاديث عن اللجوء هو حديث الجميع ..

الزهور التي كانت تملأ البيت كل يوم من أرض البيارة ، لم يعد يحلم بها أحد في المنزل ..

البرتقال الذي كان في أكياس الخيش (أبو خط أحمر) يملأ بيوت الناس ، لم يعد يُرى إلا بالكيلو أو الاثنين ، إذا وجد ..

مصيف روبين ورمله الناعم مثل السميد أو السكر، وخيم الأعياد الملونة المزركشة المليئة بالسعادة والفرح ،استبدلت بخيم اللاجئين ، والحرامات السوداء ،وعلب السردين ،وطحين المؤن ،والسكر الأحمر.

كيف يتأقلم الإنسان وكيف يتعايش مع الأمر الواقع ، وكيف تسير الحياة وتطلع الشمس وتغيب وكأن كل شيء على ما يرام؟؟..

كان على بنات هدى مسؤوليات جساماً .. أقلها حمل الحليب يومياً من مسافة بعيدة ومشياً على الأقدام إلى المنزل ... وكان على بنات بكرية مسؤوليات أصعب .. لقد كن يتقاسمن رغيف الخبز والفرشة الرقيقة والغرفة الواحدة والحمام الواحد . كم سنةً استمر الحال ؟ ومتى استطاعت شراء أرضٍ بعيدة عن وسط عمان ، ليقف الأب الكفيف يراقب بناءها بنفسه ؟..

كل لبنة وضعت فوق أختها تحسّسها الأب وتأكد من حسن منسوبها ، ودقة استوائها .. كل "مدة" أرض و"صبة" سقف و"فتحة" شباك و"قمط" باب ، أشرف عليها محمود بعناية فائقة .. وكلما تجمع لدى العائلة بضعة قروش كان البناء يتّسع لغرفة ملاصقة ومطبخ وحمام ..تماماً كما كان أبوه يفعل في يافا ، لكن على مقياس مختلف تماماً ،"فالمصاري" شحيحة، شحيحة ، تجمعها بناته وزوجته من عرق جبينهن في الخياطة

لأهل الحي ..وفُجع الجميع بوفاة الجد الحبيب في يافا التي لم يتركها عندئذ..رفض أن يترك عقاراته وأراضيه.. فأصابه جندي اسرائيلي برصاصة في رجله ، نقل بعدها إلى غرفة في حي المنشية حتى مات نسياً منسياً ...

لقد أُجبر الذين لم يتركوا يافا ، على التجمع في حي واحد، وقام اليهود بإنشاء سياج حديدي حولهم ..تماما كما تضع سياجاً حديدياً حول مزرعة الدجاج ، أو حظيرة حيوانات ، حتى الذين لهم بيوت – وهم مالكوها – منعوا من الاقتراب منها وحوصروا في هذا الحي ،خشية أن يمانعوا أو يعارضوا أو يقاوموا الاحتلال ، وسكن المهاجرون اليهود في بيوتهم وعلى فراشهم وأثاث بيوتهم ، وأُقفلت الحدود البرية والبحرية والجوية حول فلسطين المحتلة ، ومُنع السكان الفلسطينيون من الاقتراب منها لا جواً ولا بحراً ولا براً ...

لم يكن حديث الناس ، إلا عن الهجرة واللاجئين والبيارات والبيوت التي تركت بعفشها وأثاثها ، والمفاتيح التي حملوها معهم على أمل العودة إليها .. لقد أصبح مفتاح الدار رمزاً للهجرة واللجوء.

كان فهيم يرغب لو بقي في رام الله ، ولم يُسجل مع اللاجئين في عمان مع مكاتب الأُنروا فهو لم يكن لاجئاً فعلاً ، لقد انتقل

عمله من يافا ، فانتقل مع عائلته ، كأي إنسان عادي في العالم ، ويمكنه أن يعود إليها متى شاء كأي إنسان عادي في العالم أيضاً ، فكيف يُسجل نفسه وعائلته لاجئين؟ ولكنه وجد نفسه مضطراً لذلك ، وإلا فلن يكون بإمكانه ، أو إمكان أبنائه العودة إلى يافا أبداً..

وانتقل فهيم أو قل هاجر إلى عمان وسجّل مع اللاجئين .

وعندما افتتحت مدارس عمان صفوفاً للطالبات في المرحلة الإعدادية والثانوية ، وعندما افتتحت مدرسة زين الشرف الثانوية ،كانت بنات هدى أول الملتحقات بها .. فهل هناك أسمى من مواصلة العلم لفتيات كان العلم أساسياً في حياتهن ؟ انتظمت الدراسة، وأبدعت الفتيات ، ولكن صفة اللاجئين ظلت تلاحقهن أينما تحركن...تدخل المديرة أكثر من مرة إلى الصف تسأل : الطالبات اللاجئات يقفن ..فيقفن.. الطالبات اللاجئات يذهبن إلى سكرتيرة المدرسة لتسجيل أسمائهن..فيذهبن ..الطالبات اللاجئات يُحضِرن كرت المؤن.. فيُحضرن.. الطالبات اللاجئات .. الطالبات اللاجئات .. كم كانت هذه الصفة تحفر جرحاً عميقا في نفوسهن ..فيعوضن ذلك بالاجتهاد والدراسة والتفوق ...

الخبران السعيدان

عندما جاء الخبران السعيدان لهدى عن ابنتها البكر "كاملة" لم تسعها الفرحة ..خبر بحصولها على منحة دراسية في الجامعة الأمريكية في بيروت للحصول على بكالوريوس في الرياضيات. والخبر الآخر بتقدم عريس لخطبتها من أهل يافا من الذين هاجروا إلى عمان...

العريس من أهم شباب يافا .. والده " شيخ " كان يُدرّس الطلبة في يافا في "كتّاب الشيخ" قبل الانتداب الانجليزي ، ثم اتجه للتجارة وصار عنده بيارات وأراضٍ وتجارة برتقال، واستيراد مواد غذائية من الرز والسكر والبن والشاي والبهارات، مما جعله من أغنى أغنياء يافا ... كان الشيخ يعلم الأطفال كصدقة جارية لله تعالى ، فأمواله وتجارته وعقاراته لا تأكلها النيران .. وأرصدته البنكية في بنوك فلسطين العربية والانجليزية كبيرة، تجعله يطمئن للحاضر والمستقبل له ولأولاده.. فلما أصبحوا لاجئين أيضاً، وانقطعوا عن أرزاقهم في يافا، شمّر الأبناء الشباب عن أذرعتهم ، واتصلوا بالتجار الذين كانوا يتعاملون معهم ، وبدأوا العمل مجدداً من عمان ، وما هي إلا سنوات ، حتى عادت تجارتهم للإزدهار ، خصوصاً بعد أن أفرجت بعض البنوك العربية والانجليزية عن بعض أرصدتهم المالية ...

الخبران السعيدان نزلا عند الأب والأم ، كجزء من المكافآت التي كان ربنا يكافئ بها عباده الصابرين ، بين الحين والحين ، أو قل بين المصيبة والمصيبة ، فأي الأمرين يختاران ؟..

أما " كاملة " فكان خيارها واضحاً وجلياً ، هذا الشعب الفلسطيني المشرد ، يجب أن يثبت نفسه بالشطارة والعلم... فبعد سنوات الضياع على الطرقات والتشرد وعدم وجود مدارس تناسب المرحلة التي وصلتها في فلسطين ،وانقطاعها عن الدراسة ، وبعد إبداعها وتفوقها عندما افتتحت المدارس في عمان ، فإن الأنسب والأجدر والهدف الأسمى لها أن تواصل تعليمها الجامعي..

أما الأب فكان له رأي آخر تماماً ، أما وقد جاء العريس ابن الحسب والنسب ، فهو يختار الزواج الأستر والأنسب ، والهدف النهائي لأي بنت في عمرها ، ثم إنّ وراءها ست بنات ، على الأقل ثلاثة منهن في عمر الزواج ، فماذا ينتظر ؟.

وتذكرت هدى " الديلجنس " وعربات الكارو في يافا .. عندما كانت صغيرة كان عند عائلة العريس عربات الكارو وعربات الديلجنس..الأولى للخضار والعمال والثانية للعائلات والسيدات الأنيقات والمرفهات..وها هو ابنهم يطلب يد ابنتها "كاملة" فلماذا التردد..؟ إذا عادت البلاد لنا ، وإذا عدنا

للبلاد ، فلن يكون هناك أسعد من ابنتها مع هذه العائلة فلماذا التردد ؟

كم بكت "البنت" على ضياع حلمها بالدراسة ، ولكن بنت خالتها كانت قد سبقتها بالزواج من سنين ، وأنجبت الأولاد وهي لا تزال على مقاعد الدراسة ، فهل يعقل أن يقال عنها "بايرة " أو عانس؟وإذا تأخرت في الزواج ، فسيتأخر زواج أختها "ازدهار" فهل يرضى المجتمع بذلك؟

وتم الزواج .. وإذا كان هناك مقياس لمستوى الرفاه في العادات والتقاليد في الأعراس "عرس عمان وعرس يافا" ، فسيكون المقياس في أدنى درجاته .. فمقياس "رختر" للزلازل أثّر في كل شيء ...

تاريخ وتأريخ وأشعار

تؤرخ الشعوب سنواتها بأحداث مرّت..فتلك سنة الهزّة وأخرى سنة الثلجة،وأخرى سنة النكبة،ثم سنة النكسة ...إلخ

والتاريخ الجمعي للشعوب ، لا يُمحى من صدور الأبناء ، فهؤلاء الأطفال يتأثرون أضعافاً مضاعفة إذا ما تفاعل الأهل في البيت مع المجتمع في القضايا العامة ..

وقد كانت الأعوام "ذات المد القومي" مؤثرة في البيت والمدرسة والمجتمع ، توجت برد العدوان الثلاثي على مصر وتحرير الجزائر .

أما في العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦، فقد انبرى "فهيم" - مثله مثل كل سكان عمان- لوضع الدهان الكحلي على شبابيك البيت، وإلصاقها باللاصق عدة خطوط طولية وعرضية ، تجنباً لحدوث إصابات جراء تكسير الزجاج من الغارات الجوية الليلية على العواصم العربية . كانت انجلترا وفرنسا و"إسرائيل" قد بدأت هجوماً كاسحاً على مصر بقوات برية وبحرية وجوية،رداً على قيام زعيم مصر "جمال عبدالناصر" بتأميم قناة السويس "شركة عامة مصرية" بخطاب هزّ أعمق أعماق كل إنسان عربي من جهة، وأعمق أعماق دول الغرب الاستعماري انجلترا وفرنسا ، وبالتأكيد إسرائيل من جهة ثانية..

وسرت موجة المشاعر القومية في كل بيت ، في طول الوطن العربي وعرضه ، تأييداً لحق الشعوب العربية بامتلاك مقدّراتها وسيادتها .. ووقوفاً مع مصر ضد العدوان.

وتوقفت الحرب بناءً على موقف الدول الكبرى روسيا وأمريكا اللتين أمرتا بايقاف العداون ، واعتبرالأمر نصراً لمصر ، التي حارب شعبها ، دفاعاً عن قناته ومدنه وأهله .

وحفظت الأسرة كلمات الأغاني القومية ورددتها ليلاً ونهاراً:

اللّه أكبر .. اللّه أكبر فوق كيد المعتدي ..

اللّه للمظلوم خير مؤيد ..

يا هذه الدنيا اطلي واسمعي ..

جيش الأعادي جاء يبغي مصرعي ..

بالحق سوف أرده وبمدفعي ..

فإذا فنيتُ فسوف أُفنيه معي ..

قولوا معي .. قولوا معي ..

اللّه أكبر .. اللّه أكبر .. اللّه أكبر

اللّه فوق المعتدي ...

ولّما تحركت الشعوب العربية لنصرة ثورة الشعب الجزائري على مستعمريه الفرنسيين، ملأ الحماس بيت فهيم وبناته وأبنائه أيضاً.. فالمدرسة والبيت والشارع ، يتحدثون عن هذه الثورة ، وعن قادتها الأبطال وتحديداً "أحمد بن بيلا" و"جميلة بوحيرد" .. وكان جزء من مصروف الطالب يذهب يومياً في صندوق مدرسي لنصرة ثورة الجزائر ، وطابور الصباح يتحدث عن هذه الثورة وواجب دعمها ، والإذاعات العربية تؤكد حتمية النصر في الجزائر.. ولما تكلل نضال أبنائها بالنصر ، أحسّ الجميع : صغاراً وكباراً ، أنهم ساهموا بصنع هذا النصر، وأثر فيلم الممثلة "ماجدة" بدور جميلة بوحيرد بصناعة هذا الإحساس الجميل بالبطولة والنصر ، أضاف عليها الشاعر نزار قباني أبياته الخالدة التي رددها أفراد الأسرة ليلاً ونهاراً :

الاسم جميلة بوحيرد

رقم الزنزانة تسعون

في السجن الحربي بوهران ..

والعمر اثنان وعشرون

عينان كقنديلي معبد

والشعر العربي الاسود

كالصيف كشلال الأحزان ..

كم من الأحداث يقف عندها التاريخ ليؤرخ بها ؟ وكم من الانتصارات من جهة أو الهزائم من جهة أخرى أرخ لها الشعب العربي وحفظها في ذاكرته الجمعية ؟؟.

في الشتات

لما كانت "هدى" ابنة عم لزوجها "فهيم" ، فقد كانت تحس أن أقارب زوجها هم أقاربها ، فهي يتيمة الأم والأب وليس لها إخوة أشقاء.. وستها التي ربتها رحلت الى بارئها منذ مدّة.. كانت تتذكر أشقاء زوجها وعائلاتهم ، فتحس أن المسافة الجغرافية والزمانية بينها وبينهم بعيدة للغاية ..

هل كان الفلسطيني بعد النكبة يستطيع أن يسافر من منطقة إلى أخرى ، ومن قطر إلى آخر مثل باقي البشر ؟ كم استغرق الأمر من سنين حتى يحصل أول لقاء بين الأخ وأخيه ، أو الأخت وأخيها .. وكيف كانت حياة اللاجئ في سوريا أو لبنان أو مصر أو العراق أو ليبيا ؟

حمل فهيم رسالة وصلته بالبريد من سوريا ، وأعطاها لزوجته لقراءتها .. كانت من زوجة أخيه "سعيد" ، تخبرهم فيها عن الوضع الصحي المتدهور لزوجها .. بعد مدّة وصلت رسالة أخرى تخبرهم فيها عن وفاته !! يموت الأخ ولا يستطيع أخوه أن يقف معه في جنازته !! يموت ولا يتقبل عزاءه !! يموت ولا يحتضن أبناءه ليعزيهم بوفاة أبيهم !!..

وعندما استطاع فهيم الحصول على جواز سفر أردني ، سافر إلى دمشق لرؤية أبناء أخيه وعائلته .. ما أصعب الشتات.. وما أقسى الهجرة .. بأقل القليل استطاعت العائلة العيش دون معيل في دمشق .. وبوثيقة سفر تثبت هوية هذا الفلسطيني ، عاشت العائلة حياة صعبة ، لا تستطيع التنقل فيها إلى أي قطر خارج سوريا !!

صحيح أن سوريا احتضنت آلاف الفلسطينيين المشردين من بلادهم، ولكنهم ظلّوا بلا هويّة أو جواز سفر يمكنهم من التنقل إلى خارج سوريا..فهؤلاء اللاجئون في مخيمات دمشق وما حولها ، والآخرون في مخيمات حلب وما حولها، ومخيمات اللاذقية وحمص وغير ذلك،لهم حقوق في كثير من الأمور، ولكن تنقصهم حقوق في أمور أخرى كثيرة .. لهم الحق في الدراسة في مدارس وكالة الغوث أو مدارس الدولة وجامعاتها، ولهم الحق في العمل في مؤسسات حكومية وخاصة، ولكنهم

لاجئون يحملون وثيقة سفر لا تُقبل في معظم البلدان العربية والاجنبية ..

ومع ذلك فالفلسطيني الذي يحمل همَّ قضيته ، انضم إلى أحزاب ظنّ أنها قد تُقرِّبه ولو بوصة إلى وطنه .. وقد التحق أبناء "سعيد" بالأحزاب في سوريا .. هذا مع حزب التحرير، وذاك مع الإخوان المسلمين ، وآخر مع البعث ، المهم تفجير الطاقات السياسية والوطنية علّها تساعدهم في حل معضلة من معضلات حياتهم..

في أول مرّة استطاع "فهيم" السفر إلى دمشق لرؤية أولاد أخيه ، كان هناك إحساس عائلي غريب لرؤية ابن أخ أو ابنة أخ بعد وفاة الأخ ، ولكن جملة ظلّت محفورة في ذهن العم،يحكيها وهو يبكي متأثراً - وإلى مدة طويلة من حياته - نقلاً عن زوجة أخيه :كم من الأيام والأسابيع والأشهر كانت تمر ونحن نغمّس "الخبز الحاف" بالشاي للفطور والغذاء والعشاء بعيداً عن خيرات الوقف وايراداته ، والبيارة ومحاصيلها الزراعية وخيرات يافا وبحرها ومراعيها ..

ولّما كان التعليم مجانياً في سوريا حتى الجامعة ، فقد تخرج الأبناء الثلاثة من الجامعة وعملوا كلٌ بتخصصه .. الطب والأدب والإقتصاد ..بعضهم جلس على مقاعد الجامعة فعلاً، وبعضهم أخذ شهادته الجامعية وهو في السجون السورية ..

كم أكلت السجون السورية من جلد الفلسطينيين فيها !! .

أما الفلسطينيون في لبنان ، فلهم حكاية أخرى تعجز المجلدات عن شرحها .. فلا وثيقة سفر ولا فرصة للتعليم ولا فرص للعمل الحر الكريم .. زاد عليهم العنصرية الدينية ، هذا مسلم سني وذاك مسيحي وهذا شيعي ، وهنا مصطلح " توطين يقلب الموازيين الرقمية للأكثرية الدينية " وهناك مصطلح " أمن المخيمات " وهذا " سلاح المقاومة" وذلك " سلاح الحزبية " .. وهذه مجزرة " مخيم تل الزعتر " وتلك مجزرة " مخيم صبرا وشاتيلا " ، وهذه مؤسسة " صامد " وتلك مؤسسة " الدراسات الفلسطينية " وهناك دور نشر نشطة، تفجر الطاقات الفلسطينية الإبداعية ، وتخرِّج أمثال غسان كنفاني ، وناجي العلي ، وعبدالوهاب الكيالي وكمال ناصر ، وكمال العدوان ، ويوسف النجار وعلي سلامة .. ومئات ممن عملوا للقضية الفلسطينية في كافة المجالات ، إلى ان وصلتهم يد الغدر الإسرائيلية فقتلتهم في بيوتهم أوفي أسرَّتهم ومع عائلاتهم !!

وقد ظلّ الحاج خالد في لبنان لا يستطيع التحرك منها أو إليها، يعمل مع ما تبقى من "قدرة" الهيئة العربية العليا وزعيمها الحاج أمين الحسيني ، بعيداً ، وبعيداً جداً عن فلسطين ويافا ومدنها وقراها .. ولكنه بقي يخدم أبناء فلسطين

في الشتات..

وعندما شارك الحاج أمين الحسيني بدفن الحاج خالد في مقبرة الشهداء في بيروت مستذكراً نضاله ووطنيته ، سواء على أرض فلسطين أو عندما سافر معه إلى العراق ومن ثم إلى ألمانيا لدعم الثورة والثوار،أو في السجن ، أو في المنفى ، ثم هنا في لبنان بعد النكبة، وقف ابنه الوحيد "وليد" فقط يتقبل العزاء ، فلا عزاء حقيقياً للمشردين عن أوطانهم ..

ولم يستطع "فهيم" طوال حياته أن يرى أحداً من إخوته أو أخواته الذين هاجروا الى مصر !! أو إلى أي بلدٍ عربي آخر!!

مجتمع عمان

كان المجتمع في الأردن وفي عمان تحديداً ،مزيجاً من السكان القادمين من مختلف البلدان العربية ، ومن الأثنيات العرقية:البدو العرب ، الأردنيون الذين جاءوا من الجزيرة العربية مع الهجرات العربية إلى الشمال ، الفلسطينيون الذين جاءوا للعمل في الأردن قبل احتلال فلسطين ، أهل الشام الذين استوطنوا عمان للعمل فيها ، حيث الأردن الجزء الجنوبي من

سوريا الكبرى ، وحيث اللجوء من بطش المحتل الفرنسي لسوريا ولبنان ، والمهاجرون الشركس المسلمون الذين هربوا بدينهم من ظلم الروس ضد المسلمين في روسيا ، ثمَّ الأرمن والدروز . كان في عمان مجتمع مختلط ، ثم جاء اللاجئون الفلسطينيون بأعداد كبيرة قد تكون أكثر من عدد سكان عمان ذاتها.. بعضهم سكن الخيام وبعضهم اشترى الأراضي وبنى عليها ، وبعضهم اشترى البيوت وسكنها..

وامتزج سكان عمان امتزاجاً غريباً وسريعاً .. فالشاب السوري أو الأردني أو الشركسي أو الفلسطيني ، للبنت الشركسية أو الفلسطينية أو الأردنية أو السورية .. لم يكن هناك شعور " بالتفرقة " بل "قبول" بالآخر ، ومصاهرة بين كثير من العائلات ، أسموه مجتمع الأنصار والمهاجرين.. اندمجت العائلات وأصبحت السيدات يتقابلن مع بعضهن في ما يسمى " الاستقبال " وهو اليوم الذي تحدده ربة البيت لاستقبال صديقاتها وجاراتها ومعارفها ، استعداداً لذهابها هي إلى استقبال صديقتها أو جارتها في اليوم الذي تحدده هي ..

كان يوم الاستقبال في بيت " هدى " هو يوم عيد وفرح عند الجميع.. إنه يوم ينسيها وينسي بناتها وصديقاتها ومعارفها ، مأساة الهجرة والبعد عن الوطن ..كان الأثاث الذي حُمل من يافا إلى عمان ركناً أساسياً في ترتيب البيت لاستقبال الضيوف،

وتقوم البنات – بمساعدة إحدى النساء المستأجرات–بشطف وتنظيف البيت والدرج والساحات، وتزيين الصواني واستعمال النفيس من كاسات الشاي والقهوة ووضع أفضل الشراشف المنشّأة المكوية في أماكنها . وكانت البنات تتهيأن لاستقبال ضيوف أمهن وتقديم كؤوس وأكواب العصير ثم أطباق المهلبية أو الرز بالحليب ، أو الزلابية وأصابع زينب ثم القهوة والشكولاته.. من هنا ازدادت معارف الأم ، واختلطت مع شرائح واسعة من الشركس والشوام والأردنيين والفلسطينيين،وأصبحت عائلات صديقات بناتها في المدرسة صديقاتٍ لها ، ولم تعد تحس بالغربة عن يافا وفلسطين .. بل إن قضية فلسطين ونضال أبنائها ، وبشاعة الاحتلال وكره الانجليز واليهود ، انتقل إلى المجتمع الأردني ، وأصبحت قضية فلسطين قضيته هو..ولمّا كبرت البنات وتخرجن من المدرسة ، أصبحن معلمات ، يحملن قضيّتهنَّ معهن فيها ..

أمسكت المعلمة يد طالبة من طالباتها وشمتها .. قالت لها هذه رائحة صابونة مستوردة .. وأنا أرفض أن تستعمل طالباتي الصابون المستورد...

فامتنعت الطالبة وكل الطالبات عن استعمال الصابون المستورد وأي بضاعة مستوردة ..

خاطت تنورة لها ، بيدها ،وطرزت عليها خارطة الوطن العربي..وقالت للطالبات ، كلكن يجب أن تحاولن خياطة ملابسكن ولا تشترين الفساتين المستوردة ...

كل الطالبات أحببن الوطن العربي والوحدة العربية والإخلاص للوطن ...

نددت الحركات السياسية بحلف بغداد ، فاشتعلت الطالبات بدعم من معلماتهن بالحماس وَرَفْضِ الحلف . وتم حجز قيادات الطالبات .. فلمّا جاءوا للأب يخبرونه أن ابنته تم احتجازها وتوقيفها في "النَّظارة" لمحاكمتها ،أثنى على شجاعتها ، وطلب من أخيها الصغير أن يرسل لها بطانية لتتدفأ بها ، بدل السعي لخروجها من النظارة .

لم تكن فلسطين والقضية الفلسطينية إلا في وسط كل أمر، وحبة عين كل إنسان في المجتمع الأردني ، ولم يكن هناك مناسبة إلا وتقف إحدى البنات أو الأبناء من الفئات العمرية المختلفة، لإلقاء قصيدة عن فلسطين أو يافا أو لتشارك في مسرحية عنها .. أو تنخرط في حزب أو حركة سياسية شعارها استرجاع فلسطين !!

الوحـــــدة

لم تر هدى زوجها فهيم ، يرقص أو يغني أبداً ، بل إنه كان في أيام أعراس بناته ، يبكي ويُبكي الناس من حوله .. كان العرس ووداع البنت من بيت أبيها ، مناسبة للأب كي يبرز خَطَابته وتفوهه،يوصيها بالوصايا العشر أو العشرين لمعاملة زوجها وأهله،فها هي تترك البيت الذي فيه تربت إلى بيت لا تعرفه وأهل لم تألفهم، لتعيش مع قرين غريب عنها وعن طباعها وعاداتها ..فلتكن له أمَةً يكن لها عبداً ، تفرح لفرحه وتحزن لحزنه ، وتعينه على مصائب الدنيا وأفراحها وأتراحها.. وتنجب له الذرية الصالحة ... الخ

ولكن هدى رأته في ذلك الصباح يغني ويرقص طرباً ، ويوقظ ابنه محمداً وبناته ، ليحفظوا معه وعلى مدى المقبل من الأعوام، أغاني الوحدة العربية بين مصر وسوريا ...

أعلن القائد جمال عبدالناصر الوحدة بين مصر وسوريا ... وكان أحد أهم آمال الفلسطينيين تحديداً والعرب عموماً أن تقوم الوحدة بين أقطار الدول العربية لتكون أُمةً مهيبة،قوية،تحرر فلسطين ...

وانطلقت الإذاعات العربية : المصرية والسورية ، بتكرار أغاني الوحدة .. ورقص فهيم عليها كما لم يرقص من قبل....

غنى مع المغنّي محمد قنديل :

وحدة ما يغلبها غلاب .. يشاركها وحدة أحباب

توصلنا من باب لباب .. ولا حاجز ما بين الاثنين

ولا مانع ما بين الاثنين ..ولا حايل ما بين الاثنين

أنا قاعد فوق الأهرام .. وقدامي بساتين الشام

أشاهدها وأهالي كرام .. يقولو ا لي أهلا يا زين

يقولوا لي مرحى يا زين

ولا مانع ما بين الاثنين ..ولا حايل ما بين الاثنين

وزغرد مع المغنية صباح :

آووها وتمت الوحدة

آووها من بعد الشدة

آووها يا جمال عبدالناصر

آووها يا موحّد الامّة

ولفرحة أبنائه بفرحه ، فقد قامت ابنته فاطمة بتخصيص دفتر خاص لكتابة هذه الأغاني لحفظها غيباً ، ثم جمعت كل الأناشيد والأشعار التي قيلت بيافا ، وأهدت والدها الدفترين معاً !!

جمال عبدالناصر معشوق الملايين العربية من شرق البلاد العربية إلى غربها .. يطوي صفحة الاعتداء الثلاثي على أرضه، ويعوض شعبه بوحدة مع سوريا.. لتكون " كالكماشة " على دولة الاغتصاب .. دولة العدو ..دولة الاحتلال الإسرائيلي ..

كم مرة سيستعمل الناس كلمة " الكماشة " لتشبيه انقضاضهم على دولة إسرائيل وتحطيمها وإزالتها عن الوجود؟؟ كم مرة ؟؟

وهل انطلقت هذه الكماشة حقاً ؟ وماذا كانت يوم حرب الأيام الستّة؟؟

هذا مالم يعرفه أحد ، ولن يعرفه أحد ..

المـــوت

لم يكن لهدى إخوة أو أخوات إلا أختها " بكرية " ... وجغرافياً، كان بيتها بعيداً عنها .. ولكنها عندما اشتكت إحدى بناتها أنها " تحب أختها أكثر منا" ، وأنها " تفضل أن تعطيها أكثر منا" غضبت الأم وقالت : هي أختي وليس لي غيرها ولا أتوقع أن ينجب لي والدي غيرها.. أما أنتم بناتي وأبنائي فأنتم

عشرة .. وإذا ماتت إحداكن لا سمح الله فلي غيرها ....

بقيت بكرية متوسطة الحال .. فزوجها الكفيف لا يعمل بأية وظيفة لا ثابتة ولا متحركة .. وأبناؤها الذكور لا زالوا صغاراً ، بل إن اثنين من الأبناء أنجبتهم بعد الهجرة ، في هذا البيت الصغير الذي بناه زوجها ، وأضاف إليه – كلما أمكنه ذلك – ملحقاً وراء ملحق .. والبنات يخطن لأهل الحارة – الفقيرة أصلاً – بقرش أو قرشين أو عشرة قروش ..

كانت بكرية لا تزال في مقتبل العمر ، ولم تتجاوز الأربعين عاماً ولها هي الأخرى عشر من البنات والأبناء فلما أحست أنها " حامل " لم يسعها عقلها .. فهل تضيف إلى الهم همّاً آخر .. ألا يكفيها هذه الأفواه لتطعمها وتسقيها وتعلمها وتلبّسها .. وما الذي يكفيهم ويسد رمقهم؟.. جسدها يذوي أكثر فأكثر وهي بالكاد تنصب قامتها تحت وطأة هذا التعب والشقاء .. فهل تضيف إلى تعبها حملاً آخر ؟

وبهدوء ودون إشعار أحد من بناتها ، أقبلت على أثقل قطعة من الأثاث في منزلها وأخذت " تزيحها " من جهة لجهة .. تلك طريقة معروفة " للتطريح " إنه " كوريتاج " منزلي يدوي فعال، فينزل الجنين وترتاح من همِّهِ ، ثم أحضرت كوباً من الكاز وشربته لتسهيلِ نزول الجنين.

ولكن الله لم يرد لها ذلك فقد أعياها الكاز كثيراً ، وأخذت تبصق وتنزف دماً .. وأقبلت بناتها عليها وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة، وتوصيهم بأبيهم وإخوتهم الصغار، وبخالتهم "التي ليس لها في الدنيا غيرها " وخرجت روحها من جسدها بكل بساطة وسرعة !!

أي إعصارٍ ألمّ بهدى لسماعها بموت أختها .. قتلتها الهجرة وسوء الوضع المادي ، وكثرة العيال وقلة الحال " يا حسرتي عليك يا أختي " !!

في الموت يجمع الحزن العائلات ..

في الموت قال الشاعر :

"إن حزناً في ساعة الموت أضعاف سرور في ساعة الميلاد"

في الموت يحنّ الغريب على الغريب ، وتحزن حتى الأشياء كلها ..

ولكن الموت لا يستثني أحداً .. إنه قريب بشكل يفاجئ الناس دوماً.. فكل وفاة فرد هي مفاجأة للعائلة والأقارب والمعارف .

لم تكد تمضي أشهر على وفاة بكرية ،حتى أُصيب " فهيم " بجلطة قلبية ، وبرغم العناية الحثيثة والعلاج الذي ناله .. إلا أن الموت لم يمهله كثيراً.. وترملت هدى وهي بعد في الأربعين من عمرها ...

كانت أبيات شاعر فلسطين محمود الأفغاني تتردد في وفاة كل يافاوي ويافاوية إذ يقول :

يافا عليك تحيتي وسلامي ..

يافا عروس الشرقِ والإسلام

يافا ذكرتك في العشية والضحى ..

في الليل في سهري وفي أحلامي

يا والدي إما قضيت مشرداً ..

فأدفن بيافا ثمّ بعض عظامي

فلعلني بعد الممات أزورها ..

فيطيب فيها مرقدي ومقامي .

ولم يتمكن أحد إلى يومنا هذا .. أن يدفن عظام أهل يافا في يافا .. لعلهم يزورونها بعد الممات .. بل إن ابن يافا المعروف جداً على الصعيد الأكاديمي الدكتور إبراهيم أبو لغد، احتاج إلى جواز سفر أميركي ، ووصية مكتوبة ، وواسطة أمريكية كبيرة حتى يدفن في يافا .. وأما مقبرة أهالي يافا ، فهي ومقابر المسلمين في كل فلسطين ، أماكن يسهل على الاحتلال الإسرائيلي خلعها ، وجرفها بالجرافات ، وبناء حدائق أو إسطبلات أو مواقف للسيارات عليها ....

سجلّ الذكريات

أي الذكريات أقسى على الأرملة ؟ وأيها أقرب إلى فكرها ووجدانها؟ الذكريات البعيدة في يافا،حين كان فهيم يحضر لبيتها وهي لا تزال مراهقة صغيرة،بدأت معه تفهم معنى الحب؟أم بعد الزواج وقضاء ما يسمى " بشهر العسل" ؟ أم هي الذكريات القريبة في عمان وقبل وفاته؟وفي علاقاتِهِ الحنون مع بناته وأبنائه وأحفادهِ ؟

هل تذكر حفل زفافها من فهيم ، والسبع ليالي أفراح وجلسات الحنّة والرقص بالشموع على الأصابع ؟

أم تذكر مصيف روبين وقد كانت تذهب إليه كل عام أسوةً بأهل يافا جميعهم ؟ كان فهيم يشدّ الخيام مع العمال خيمةً وراء خيمة .. هذه الخيم لإخوانه وعائلاتهم:سعيد واحمد ومصطفى، وتلك الخيم لأخواته وأزواجهن رشيقة وفهيمة، وتلك الخيمة لأخت زوجته بكرية وزوجها وأولادها ، وتلك الخيم للمطابخ والحمامات .. كل عائلة لها مطبخها وحمامها.. يمضون النهار إما على شاطئ البحر الناعم الجميل،أو في الخيام يطبخون ما لذّ وطاب..وينطلق الصغار إلى ألعابهم وشيطنتهم، تلتقي البنات مع البنات ، والصبيان مع الصبيان .. هؤلاء يتمرجحون على المراجيح التي نصبها صاحب المراجيح.. بقرش أو اثنين، يقضون سحابة النهار .. وهؤلاء يشترون تفاح الشام وغزل

البنات ويشاهدون صندوق العجب ، يعرض عليهم القصص والحكايات المصورة ... وهؤلاء يذهبون لخيمة السوق القريب المجاور.. سوق حقيقي من خيم وطاولات عرض .. يشترون الأساور والدناديش والملابس الصيفية المناسبة والبوابيج وكل ما يلزم السائح المصطاف...

وفي المساء تضيء " اللوكسات " شاطئ روبين .. ويجلس الرجال في المقاهي يلعبون طاولة النرد والورق ويدخنون السجائر والأرجيلة .. أو يحضرون الحفلات الغنائية والموسيقية، حيث يحضر الفنانون من مصر وبيروت لإحيائها للمصطافين الذين يهب عليهم نسيم البحر العليل ، فلا شيء أحلى من متعة صيف روبين، ولا ترضى عائلة مهما كان دخلها أن لا تصيّف في روبين...

وإذا انتهت ذكرى روبين ، تذكرته وهو يوزع فرحه وسعادته على جيرانه ومعارفه وعماله في البيارة ، عندما رزق بابنه محمد ..لم يكن صحيحاً أنه كان يفرح بقدوم البنت ولا يتحرق شوقاً لقدوم ولد يحمل اسمه.. كان عندما يبشّر بالأنثى يُظهر لها أنه لا يزعل أبداً،وأنها كما حملت بالأنثى وولدتها ، سوف تحمل بالذكر .. فلماذا " تزعل " ؟ كانت "هي" عندما تلد الأنثى تضع وجهها بالحائط، لا تريد أن تنظر إليه .. كأنها عاتبة على نفسها ، تلومها ، توبخها ، تتضايق منها ، لأنها لم تنجب الولد .. أما هو فكان يواسيها ، يحمل البنت يلاعبها وهي

بعد في "القماط"، ويقول لها إنها رضا من الله رب العالمين ،..
كم مرّة كرر أمامها الآية الكريمة ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ﴾٥٨ ﴿يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُونَ﴾٥٩﴿سورة النحل ، كم مرّة كرر لها الحديث الشريف "مَنْ كَانَتْ لَهُ بِنْتٌ ، فَأَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا ،وَعَلَّمَهَا فَأَحْسَنَ تَعْلِيمَهَا ،وَأَسْبَغَ عَلَيْهَا مِنْ نَعَمِ اللَّهِ الَّتِي أَسْبَغَ عَلَيْهِ ،كَانَتْ لَهُ سِتْرًا وَحِجَابًا مِنَ النَّار"

ولكنه في ذلك النهار ، وعندما رزق بالولد ، لم يُبقِ نذراً ولا عادةً ولا تقليداً إلا وقام به : أطال له شعره ثم أخذه إلى مدينة الخليل فحلق له شعره أوّل مرة هناك، ثم ذبح له الخراف ليوزعها على الفقراء قرب مسجد سيدنا إبراهيم خليل الرحمن.. عمل "مباركة" لكل سيدات الحارة ووزع علب الملبّس على كل الأطفال ..اشترى له لوازم الأطفال من أشهر المحلات في شارع اسكندر عوض في يافا ومن مصر.. ويوم علق "محمد الصغير" في سياج البيارة وهو يلعب، كاد قلبه يتوقف.. فهو الصبي بعد ست بنات ...

وها هو ابنه يقف أمامها حزيناً على وفاة والده ، لا يعرف معنى اليتم أو الترمّل ، فهو لم يتجاوز العشرة أعوام من عمره.. ولديه أخت ، وأخوان أصغر منه ، فمن سيتولى أمرهم ؟..

في كل يوم كان يدخل عليها الدار في تمام الساعة الثانية والنصف ظهراً، فهو موظف ملتزم بساعات الدوام ، يخرج من المنزل في تمام الساعة السابعة والنصف صباحاً، حاملاً ما تزوده به من فطور : رغيف خبز ، حبّة بندورة ،سبع حبات زيتون ، قطعة جبن .. وعندما ترن الساعة الثانية ظهراً ، تكون قد "فلفلت" الرز وطبخت الدجاج أو اللحم مع الملوخية أو الفاصوليا أو البامية ...فمن سيدق عليها الباب بعد وفاته، ومن سيحضر لها " الزغاليل " لتطبخها ؟.. ومن سيذكر مواسم تنشيف الملوخية ، فيحضر لها عشرات الكيلوات " لتلقيطها وتنتيف " ورقاتها وتنشيفها ؟ من سيحضر البامية لتقميعها وقليها أو تنشيفها ؟ من سيحمل لهؤلاء الأولاد البطيخ بالعشرات، يتناولونه واحدة واحدة ويرمونها للشخص الذي يليهم لوضعها تحت السرير ؟ من سيحضر تنكات الزيت في مواسمه والجبنة والفريكة ، في مواسمها؟..

ثلاثون عاماً قضتها معه ، فأي سجل سيحفظ الذكريات : حلوها ومرّها ، ايجابياتها وسلبياتها ، حربها وسلامها ..

ولكنه الموت نهاية كل حي ..

ظلت ذكرى الزوج مع الزوجة والأولاد .. لعلّها كما كانت هدى تقول: إن الحزن على وفاة شخص " كالصابونة " تصغر وتصغر ولكنها لا تختفي ولا تذوب أبداً ..

في المقبل من الأيام ستحمد الله " هدى " على موت زوجها قبل أن ينفطر قلبه بانفصام عرى الوحدة بين مصر والشام .. وقبل أن يعيش مأساة حرب الأيام الستة عام سبعة وستين .. ولكنها ستظل تذكر دوره في تربية أبنائها ،وتعليمهم وتزويجهم .

على سطح الدار

لم يجد فهيم متسعاً من الأرض ، ليعيد ما كان يفعله في بيارته في يافا .. هناك في البيارة كان يربي الأرانب والدجاج والحمام وكثيراً من الحيوانات الأليفة ، كان يسلخ الأرنب ويرسله للطبخ في الدار فتحس أن خروفاً محشياً على الطاولة ... وكان ينتف ريش صغار الحمام ويرسله للطبخ في الدار ، فتحس أن أطيب طعام هو هذه الزغاليل المحشية .. وكان يلتقط بيض الدجاج يومياً ، فيملأ الطبق بالبيض الأبيض أو البني، الصغير أو الكبير ، ذي الصفار أو الصفارين ..

كل أهل المدن والقرى في فلسطين،يعيشون من إنتاج بيوتهم ومزارعهم..فكل بيت حوله حديقة صغيرة أو كبيرة، عنده إنتاج يغطي جزءاً من احتياجات بيته .. شجرات الزيتون تعطيه الزيت والزيتون طوال العام .. شجيرات البندورة والبصل

والباذنجان، تكفي استهلاكه وتفيض .. الكلأ يُطعم غنماته أو بقراته ، التي بدورها تعطيه الحليب لعمل اللبن والجبن.. البيض من دجاجات الدار ولحوم الطير من طيور الدار .. اكتفاء ذاتي تقريباً لدى الفلاحين وأصحاب المزارع ..

ولما لم يجد فهيم أي متسع من الأرض في عمان لمثل هذه الأمور، فقد سيّج سطح داره وأنشأ فيها مزرعة للدواجن والطيور !!

كان يتفنن ببناء ما يسمى " برج الطيور "،يُطلق الطيور صباحاً ، ثم يدعوها إليه ، فتُقبل على البرج وتعود إلى مسكنها.. يضعها على كفه أو كتفه فتقفُ مسالمةً هادئة وادعة..يُسرُّ لمهارته هذه ، ويدعو أبناءه الصغار لرؤيته .. ولكن الرؤية هذه لا تكون بلا تعليم !!

- ماذا قرأتِ اليوم يا رضا في جريدة الدفاع ؟
- ماذا حفظتِ اليوم يا فاطمة ؟
- أنت يا محمد .. اقرأ لي سورة عمّ ..
- أنت يا خليل هجِّ لي كلمة "لا بأس" أين تضع الهمزة فيها ،على نَبرة أم وحدَها ؟
- أنت يا انتصار ماذا قالت " أمينة السعيد " في مجلة حواء حول موضوع "ضرب الأطفال" ؟.

تعليم مستمر .. ومتابعة مستمرة لكل صغيرة وكبيرة في حياة الأبناء.. وتحليل مفصل وممل للشهادة المدرسية لكل ابن، وضرب بالعصا على "قفا" كل مقصّر لا يحفظ دروسه ولا يُسمّع آيات القرآن الكريم كما يجب ..

أمينة السعيد

وقد كان للكاتبة المصرية " أمينة السعيد " منزلة خاصة في حياة هدى وبناتها .. فمجلة حواء والهلال والمصور كانت تصل المنزل دورياً، وكانت زاوية "أمينة السعيد" في باب "اسألوني" محل نقاش مستمر، نظراً للآراء الجريئة والمتقدمة والمتحررة التي كانت تحملها .. كانت تحث الفتاة على نيل حقوقها كاملة، فتتعلم وتحصل على أعلى الشهادات ، تكمل الدراسة الأولى وتدخل الجامعة ، تعمل بالوظائف الحكومية وغير الحكومية،تأخذ مكانها الطبيعي في الحياة السياسية، فهي نصف المجتمع ، وعلى المجتمع أن يسمع رأيها ، ويدعم إبداعاتها وانجازاتها ، لم تكن ترضى "الدونية أو السلبية " للمرأة ، وتحرضها - إن بمقالاتها أو ردودها على رسائل القراء- على امتلاك ناصية قرارها بيدها والتمسك بحقوقها ..

وفهيم الأب كان - على ما يبدو - يؤمن بهذا ، فهو كان يؤمن- منذ أن كان وصياً على " وقف " العائلة في يافا - أن للأنثى حقاً مثلها مثل حق الذكر .. بل لقد خاض معركة قضائية في يافا ليثبت أن أموال الوقف يجب أن توزع على الإناث كما هي للذكور .. وإذا كان نص "الوقفية " قد حصر "ريع الوقف" لأولاد الحاج خليل الجد الأكبر الذي أوقفها ، فهو لا بد كان يعني بالأولاد :الذكور والإناث من الذريّة.. وليس الذكور فقط،وقد ربح القضية في حينها ،وظل في قرارة نفسه يؤمن بحق الفتاة في التعليم والعمل والميراث أي المساواة مع أخيها ..

ولكن العائلة فوجئت بخطيب احدى بناتها يمنع خطيبته من قراءة المجلات الاجتماعية ، وتحديداً مجلة حواء وتحديداً الكاتبة "أمينة السعيد".. كان هذا الخطيب المتعلم ، منتمياً "لحزب التحرير" الذي أسسه القاضي تقي الدين النبهاني في القدس في فلسطين في عام ١٩٥٣ ، كرد فعل طبيعي ضد هزيمة الأمة . معتقداً أن النصر لا يأتي إلا بالخلافة الإسلامية والتمسك بالدعوة للإسلام ..ولكنه كان حزباً سياسياً متعصّباً فكرياً ودينياً .. واهتزت العائلة كلها لهذا الفكر المتعصّب ، وبدأت الخطيبة تلح على ضرورة فسخ خطبتها عنه .. وكانت مشكلة كبيرة ، خصوصاً للأم التي تخشى كمفهوم واعتقاد سائد أنّ الطلاق – وإن كان ليس حراماً - إلا أنه غير مقبول

اجتماعياً ..

أياماً وليالٍ ، استمرّت النقاشات أمام الجميع في المنزل، أتفسخ الخطوبة وعقد القران ويطلق اسم " مطلقة " على البنت ، أم ترضى بمصيرها ، وسيغيّر الزمن مفاهيم الرجل؟..

تذلّلت البنت لأبيها وأمها .. قالت إنها ستبقى لهم خادمة في بيتهم على أن تتزوج مثل هذا الرجل بعقليته المتعصبة الرجعية.. هددت بالموت لو أجبرت على الزواج .. لم تمس غرضاً أو هدية أهداها إياها..

وعندما توسط والدها عند القاضي لفسخ عقد القران ، جمعت كل الهدايا وأعادتها واحدة واحدة وأقفلت الباب وراءه ..

كان حزب التحرير واحداً من الأحزاب السياسية الكثيرة التي ملأت الساحة الفلسطينية ، كرد فعل طبيعي للهزيمة التي أصابت الأمة . وتوزع أفراد الشعب الفلسطيني في مساحة الوطن العربي على الأحزاب والجبهات السياسية:حزب البعث العربي الاشتراكي،والحزب الشيوعي،وحزب القوميين العرب، وحزب القوميين السوريين ، وجبهة التحرير الفلسطينية والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وغيرها ..

فهل كانت هذه الأحزاب لمصلحة القضية الفلسطينية ؟ أم أنها زادت من معاناة الفلسطينيين أينما وجدوا ؟..

النفط يتدفق

بتدفق النفط في الصحراء العربية ، وبنمو " مدن الملح " في السعودية والكويت والخليج العربي ، فتح الله باب رزق لأهل فلسطين اللاجئين .. وبموت رب الأسرة ، وانقطاع معاشه ، كان على الأسرة أن تدبر أمرها.. وقد سافرت فاطمة إلى الكويت معلمة في مدارسها ، كانت أول مرّة يركب أحد أفراد العائلة الطائرة .. وكان سيل الأسئلة لا ينقطع..هل يسير أحد في الطائرة ، كيف لا يسقط كوب الماء من المضيفة ؟ ماذا يقدمون على متنها ؟.. هل تخافون من ركوبها ؟

لكن الأم " هدى" لم يكن يهمها هذا أو ذاك .. كان همّها الأكبر ، كيف تسافر ابنتها وحدها إلى الكويت .. وهل يا ترى لو كان والدها حياً يرزق سيقبل بسفرها لإعالة عائلتها ؟..

في الكويت توسّع المجتمع الفلسطيني ، لكأن مدينةً فلسطينية نشأت هناك .. أحياءٌ شعبية وسكنية وعمارات ضخمة لا يسكنها إلا فلسطينيون فقط .. فيها اغتنى الناس وعوّضوا جزءاً من معاناة أهلهم . لم يكن هناك فلسطيني ، إلا ويدفع من راتبه - إن لم يكن معظمهُ – لأهله في مخيمات الشتات ، وفي الأماكن التي هاجروا إليها.. من أموالها ومن عرق الشباب تعلم الصغار ، وأكلوا وشربوا ولعبوا ثم تزوجوا..ومن أموالها ومن

عرق الشباب بنيت البيوت وتأثثت واشتريت الأجهزة الكهربائية المختلفة..من أموالها ومن عرق الشباب نشط العمل العسكري ضد الإحتلال الإسرائيلي.. وقد سافرت البنتان الأكبر إلى الكويت مع زوجيهما..فكيف تسافر هذه البنت وحدَها؟وأين ستسكن،ومع من ستعيش؟ كان المجتمع الفلسطيني في الكويت يتسع ويكبر ، وقام السيد درويش مقدادي ، المفتش بدائرة التربية والتعليم في الكويت ، باختيار المئات من الفتيات الفلسطينيات للعمل في الكويت كمدرسات في مدارسها .. وأمّن لهن السكن في بيوت خاصة للمعلمات ، ولمّا كان الغريب يحن على الغريب في بلاد الغربة، فقد كان حنان الأخت على أختها ، والأخ على أخيه والعم على ابنة أخيه أكثر ..

ودّعت هدى ابنتها بكثير من الحزن والخوف ، وحمّلتها الرسائل لأختيها تحثهما فيها على التحلي بصفات الرسول محمد صلى الله عليه وسلم : صلة الرحم ، وصدق الحديث ، وإكرام الضيف ، والإعانة على النوائب ، وكانت هذه الصفات ضرورية عند هذا الشعب المشرّد .. فقد كان عليه أن يثبت جدارته للعمل وكسب العيش ..

كانت "فاطمة" حقاً تتصف بتلك الصفات التي أوصتها بها أمها : تصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكلّ وتقري الضيف وتعين على نوائب الحياة . ولقد تركت في نفس معارفها

وأقاربها وأصدقائها أحلى الذكريات وأعمق العلاقات وأكثر لحظات السعادة حميميةً وصدقاً .

وانتقل عم البنات أحمد من مدينة الزرقاء في الأردن إلى الكويت.. كثير من اللاجئين الذين سكنوا الزرقاء غادروها إلى بلدان الخليج العربي .. لم يكن في الزرقاء سوى معسكر للجيش الأردني ، أرضها كانت رملاً ناشفاً ، وهواؤها مشبّع بهذا الرمل.. ماؤها شحيح ، وفرص العمل فيها قليلة .. سكنها اللاجئون ، فبدأوا بتكوين مدينة تكبر يوماً بعد يوم .. ولكن العم الشاب الذي تعلم في الأزهر الشريف ، والذي يتقن اللغة العربية والإنجليزية والعبرية وعلوم الهندسة ، كان يطمح لتحسين وضعه.. وكيف يمكن له ذلك ، في ذلك التجمّع الفقير ؟

فتحت الكويت باب الرزق للفلسطينيين ، وتوظف العم بوظيفة جيدة، وتعلم أبناؤه وبناته في مدارس الكويت ، وتخرج من الجامعات العربية والأمريكية كل أبنائه وبناته مهندسين وأطباء ومعلمين وحملة دكتوراه ... لقد كان فضل الكويت عليهم واضحاً ، وأعطوا هم بالمقابل العرق والشباب والعمل ليلاً نهاراً ليحافظوا على هذه النعمة.

ولما بدأ العمل الفدائي في فلسطين ، استطاع ياسر عرفات استقطاع ٥٪ من رواتب كافة الفلسطينيين لثورتِه العسكرية ضد إسرائيل للعمل الفدائي...

بعد عام ألف وتسعمائة وسبعة وستين سيتغير الحال من حالٍ إلى حال ..

الأيام الستة

كيف يمكن لستّة أيام أن تقلب الدنيا رأساً على عقب .. كيف يمكن لستة أيام أن تزلزل الأرض والوجدان ، الأحلام والآمال ، الواقع والتوقعات ؟ ستة أيام حملت الشعب الفلسطيني كله ، بل الشعب العربي كله ، حملته إلى الأعلى ، ثم رمتهُ إلى الأرض ..

ستة أيام كان الشعب العربي ينتظرها بفارغ الصبر حتى يمحو دولة الاحتلال من الوجود ، فإذا به يتمنى لو أنها لم تمرّ عليه ، أو أن الزمن قد أوقفها كما نوقف آلة الفيديو بكبسة زر "pause" .

ماذا كان سيجري لو توقف الزمن وقفز عنها؟.. لماذا تضخّمت الأحلام كثيراً ثم ذابت في لحظة واحدة .. وما قيمة ستة أيام في عمر التاريخ ؟

إنها ستة أيام بعمر التاريخ نفسه .. بعمر الهزيمة نفسها ، بعمر تحطم الآمال والأحلام ..

كانت هدى قد أرسلت ابنها محمد لدراسة الطب في العراق، وأرسلت ابنتها لدراسة الصيدلة في القاهرة،ثم أرسلت ابنها الآخر ليدرس الهندسة في القاهرة أيضاً فالهجرة لا يمكن أن تعطّل دراسة أبنائها، مهما كانت الظروف الاقتصادية أو الاجتماعية ،ثم انتقلت للعيش بقرب ابنتها الكبرى في رام الله لتبتعد ولو قليلاً عن ذكريات بيتها وزوجها وأولادها في عمان ...

عندما وقع الزلزال المدمّر لهذه الأمة ، واستولت إسرائيل على ما تبقى من أرض فلسطين ، عاد اللجوء والهجرة يدقان أبواب الفلسطينيين بيتاً بيتاً ... كم هجرة يمكن أن يتحمل المرء في حياته .. وكم لجوءاً تتسع الدنيا بأسرها ؟ كم بيتاً يستطيع المرء أن يبنى ليُهدم ، أو أثاثاً يشتريه ليتحطم ، أو أماناً يحتضن به أبناءه ليضيع ..

ضاعت البيوت ، وهدمت ، وضاع الأمان ، وسقطت الأحلام..

وارتفع صوت واحد .. صوت البندقية والعمل الفدائي .. فجاء النصر في الكرامة .

بعد عدة أشهر من السقوط المدوّي لحرب سبعة وستين جاء النصر على يد الفدائيين والجيش الأردني في معركة الكرامة : معركة الكرامة التي وقعت عام ثمانية وستين في منطقة الأغوار، فانتصر الفدائيون وقوات الجيش الأردني على جيش إسرائيل الذي كانوا يزعمون أنه لا يقهر...

حق العودة

هل كان يمكن لعائلة فهيم و هدى أو أبنائهم الذين تشبعوا من ذكرى يافا وبياراتها وسهولها وبحرها ورملها ؛ أن ينسوها وقد منعوا من الاقتراب منها ؟ أو العودة إليها ؟

كل المدنيين الذين يهربون بحياتهم وحياة أبنائهم ،من قنابل العدو ورصاصه،يعودون إلى بيوتهم بعد هدوء المعارك.. إلا الفلسطينيين ، فقد منعهم اليهود من الدخول للأراضي الفلسطينية ، وقتلوا كل من حاول العودة إليها .. كثيرٌ من الشباب الفلسطينيين حاولوا العودة : مشياً على الأقدام من الحدود الشمالية بين لبنان وفلسطين ، أو سباحةً في نهر الأردن بين الأردن وفلسطين ، براً بالسيارات ، أو على ظهور الحمير أو بحراً على متن السفن ، ولكن أحداً لم يستطع. منعته رصاصات الصهاينة وسجونهم..كم من العائلات اليافية وغير اليافية، كانت قد خبّأت المال في خزائن بيوتها فحاولت العودة لأخذه..كم من العائلات خبّأت السلاسل الذهبية والأساور ومصاغ نسائهم وبناتهم والليرات الذهبية تحت البلاطة أو في الفراش،متأكدين من عودتهم لبيوتهم وأخذها،فلم يستطيعوا.. كل من ترك بيته تحت قوة السلاح، وعلى أساس أنه سيغادرها

لحين انتهاء المعارك ، كان ينتظر العودة إليه ، فالجيوش العربية ستطبق " كالكماشة" من سبع دول عربية ، من سوريا والعراق ومصر واليمن والأردن والسعودية ولبنان.. وهؤلاء الفلسطينيون الذين دافعوا عن المدن والقرى الفلسطينية ، واستشهدوا أو لم يستطيعوا الصمود لقلة عددهم وضعف أسلحتهم وعدم تدريبهم الكافي ، ظلوّا يخططون للعودة إليها ..

ظلّت إسرائيل – ولا زالت – تخاف من " القنبلة السكانية العربية" .. ظلّت تتمنى أن ترمي سكان غزة مثلاً في البحر للتخلّص منهم .

أصبح تعداد عائلتي هدى وبكرية بالعشرات .. بنات وذكور وأحفاد وأزواج أحفاد .. كان أي لقاء يضم العائلتين ينقلب إلى حلقة نقاشية حول الوضع السياسي .. هذا مع ياسر عرفات وذلك ضده .. هذا يتهم سوريا في جريمة مخيم تل الزعتر ، وذلك لا يتهم إلا إسرائيل في كل الجرائم ضد المخيمات .. هذا يلوم الفدائيين في معارك أيلول الأسود في عمان ، وذلك يعطيهم العذر ، فالطريق إلى فلسطين ، لا بد وأن يمر من العواصم العربية .. هذا يؤيد الحل السلمي ، وذلك لا يرضى إلا بالبندقية..

كل القضايا التفصيلية في القضية الفلسطينية شائكة ..

كان بعض الأفراد قد اغتنى غِنىً واسعاً ، فأصبح يصيّف في

منتجعات أوروبا وأمريكا .. ويقتني بيوتاً في قبرص أو اسبانيا أو كاليفورنيا ، وبعضهم الآخر أصبح عنده بدل السيارة ، سيّارتين أو أربعاً تقف أمام " فيلّته " في الشميساني أو جبل الحسين أو الرابية .. وبعضهم أرسل أولاده للحصول على الجنسية الأمريكية أو الكندية ، كي يصبح في مقدوره أن يسافر بجواز السفر " المحترم " أينما أراد ، خصوصاً في البلدان العربية.. أصبح من الأحفاد الأطباء والمهندسون والمعلمون والمدراء والفنيّون ، وتزوجت من البنات والحفيدات وزراء وأصحاب مراكز في دول عربية كانوا قد لجأوا إليها سواء في العراق أو ليبيا أو الكويت ، وبقيت الروابط العائلية قوية بين الجميع .. وبقي – كما هو الحال دوماً – عدد من الأحفاد متوسطي الحال.

ولكن شيئاً واحداً كان يؤكد عليه الجميع وفي أي لقاء:هو العودة لفلسطين،مهما طال الزمن ، ومهما اختلفت الطرق والمسارات ..

زيـارة إلـى يـافـا

عندما فُتح الباب إلى الخارج بدل أن يفتح إلى الداخل، وعندما احتلتْ نابلس ورام الله وطولكرم والقدس الشرقية وأريحا وجنين ..وو.. وعندما أصبح فلسطينيو الضفة الغربية

تحت الاحتلال الإسرائيلي .. استقبل شاعر فلسطين محمود درويش شاعرة فلسطين النابلسية فدوى طوقان ، وكان لقاءً حزيناً دامياً ، فبدل أن يلتقي الاثنان في الجزء الحر، إذ بالاحتلال يخيّم على الجزئين من فلسطين .

يومها قالت فدوى طوقان في قصيدة " لن أبكي " :

على أبواب يافا يا أحبائي
وفي فوضى حُطام الدُّور ، بين الرَّدْم والشَّوْكِ
وقفْتُ وقلتُ للعينين :
يا عينين قفا نبكِ
على أطلال مَنْ رحلوا وفاتوها
تُنادي مَنْ بناها الدارْ
وتَنعى مَنْ بناها الدارْ
وأنَّ القلبُ مُنسحقاً
وقال القلبُ :
(ما فَعَلَتْ بكِ الأيامُ يا دارُ ؟
وأينَ القاطنونَ هُنا ؟
وهلْ جاءَتْكِ بعدَ النأي ، هل جاءَتْكِ أخبارُ ؟
هُنا كانوا ، هُنا حلموا
هُنا رَسموا مشاريعَ الغد الآتي
فأينَ الحُلْمُ والآتي ؟ وأيْنَ هُمُو ؟

وأيْنَ هُمُو ؟)
ولمْ ينطقُ حُطامُ الدارْ
ولمْ ينطِقْ هُناك سوى غيابِهِمُو
وصمْت الصَّمْت والهِجرانْ
وكان هُناكَ جمعُ البوم والأشباح
غريبَ الوجه واليدِ واللسَانِ ، وكانَ
يُحوِّمُ في حواشيها
يمدُّ أُصُولَه فيها
وكانَ الآمِرَ الناهي
وكانَ ... وكانْ ...
وغُصَّ القلبُ بالأحزان..

فرد عليها محمود درويش :

لم نكن قبلَ حزيران كأفراخ الحمام
ولذا، لم يتفتَّتْ حبنا بين السلاسلْ
نحن يا أُختاه، من عشرين عام
نحن لا نكتب أشعاراً،
ولكنا نقاتل .
صوتك الليلةَ،
سكينٌ وجرحٌ وضمادُ
ونعاس جاء من صمت الضحايا

أين أهلي؟
خرجوا من خِيمة المنفى، وعادوا
مرة أُخرى سبايا!
منزل الأحباب مهجور،
ويافا تُرجمتْ حتى النخاع
والتي تبحث عني
لم تجد مني سوى جبهتها
اتركي لي كل هذا الموت، يا أخت.
اتركي هذا الضياع
فأنا أضفره نجماً على نكبتها
آه يا جرحي المكابر
وطني ليس حقيبة
وأنا لست مسافر
إنني العاشق، والأرض حبيبةْ!

وبعد أن استكانت النفوس وانطفأت ألسنة النيران والغضب،بدأ أهل فلسطين الحرّة ، يزورون فلسطين تحت الاحتلال .. ورأى الأطفال اليافعون يافا، فذهلوا وتحطمت صورتها في أذهانهم .. رأوها حطام مدينة ذابلة ، لا نضارة فيها ولا تألق .. لم يروا فيها بيارات البرتقال الخضراء ، ولا

شمّوا رائحة زهر البرتقال ولا شذاه ، لم يروا شارع اسكندر عوض أو جمال باشا أو ساحة " الساعة " كما كانت توصف لهم.. لم يروا الميناء ولا السفن الراسية فيه ، كانت شبه ميناء، أو قل جزءاً صغيراً من ميناء كان له اسم كبير فيما مضى .. بحثوا عن جوامع يافا وكنائسها ، فلم يروا إلا جامعاً صغيراً طالما تغنى به أهلهم هو جامع حسن بيك .. أما الجامع الكبير فكان جامعاً صغيراً مهملاً لا حياة فيه ..لم يسمعوا أن في يافا أية مطبعة ، وكأن اللغة العربية لم تعد تُطبع في كتبٍ أو مجلات أو جرائد ..

قال أحدهم : أهذه يافا التي كنتم تتباهون بها ؟ ليتها ظلت في خيالاتنا ولم نرَها كما هي الآن ..

بحثت البنت الصغرى عن بيت أبيها ،فلم تتعرف عليه،اتصلت بأمها هدى في عمان تسألها ، كانت قد تعرفت على فتاة مسلمة عرفتها من ملابسها في مدينة يافا ، فأخذت هذه تستعلم من هدى عن منزلها القديم ، فلم تتعرف عليه " لعلّ الزمن شوّش الذاكرة " .. ولكنها عرفته من التلة المقامة عليها يافا القديمة ، وقد أصبحت بيوتاً للفنانين والفنانات تباع الدار فيها بملايين الدولارات .. على هذه التلة كانت تقع بيوت اليافيين .. وفيها قهوة " المدفع " التي كانت تسمع عنها من أهلها ، حيث يجتمع العمال مع الموظفين والصيادين والتجار أصحاب البيارات ..

قهوة الرجال الذين تتلاقى مصالحهم مع تجارتهم وزراعتهم وأوقات فراغهم ولهوهم ، فيها بدأت ترتيبات الإضراب الكبير ، إضراب الشعب الفلسطيني ، ستة أشهر كاملة ، فكان أطول إضراب في تاريخ العالم كله .

ومع أن كل ما حولها كان يوحي بالاحتلال ، إلا أن دائرة بسيطة في الأرض استوقفتها مطولاً ..إنها غطاء " مُنْهل " لتصريف المياه.. مكتوب عليه بالعربية وبالعربية فقط "شركة السكب الفلسطينية" إذن هذه المدينة كانت فعلاً عربية فقط، أقام فيها الانجليز حاميتهم فحولوها تدريجياً إلى مدينة مختلطة ؛ تختلط بها اللغة الانجليزية مع اللغة العبرية – آه ما أحقر الانجليز – أعطوا أرض غيرهم ، لأناس أرادوا التخلص منهم في بلادهم ، رمونا بدائهم ليستريحوا هم .. ما أسوأ الانجليز فهم أصل البلاء والداء .. خدعوا شريف مكة الحسين بن علي ،ليثور على الأتراك العثمانيين ، ووعدوه بمملكة عربية واحدة يكون ملكها ، ثم تخلوا عنه بعد أن ساعدهم في هزيمة الأتراك العثمانيين ، ولم يعطوه إلا منفىً في جزيرة صغيرة في البحر الأبيض المتوسط ، مات فيها لا يملك ثمن أكله ولا شربه.. هل يمكن لعاقل أن يصدق أن هذا "الشريف" ابن الأشراف الذي كان يسيطر على أراضي الحجاز ونجد، والموعود ليكون ملك الأمة العربية كلها في العراق وسوريا والأردن وفلسطين ،

وهو أب لملكين في العراق والأردن ، يُنفى إلى جزيرة صغيرة، فلا يستطيع تأمين أكله ؟ ويذلّه الحاكم الانجليزي للجزيرة، فيرهن خنجره المصدّف ذا الأحجار الكريمة مقابل أربعين ديناراً ؟

كانت زيارة أهل يافا لها كارثية بمعنى الكلمة .. قالت كاملة إنّها ظلّت تُقبِّل تراب يافا وتتمرغ عليه ، وبعدها نامت في الفراش ثلاثة أيام متتالية ، وقد امتلأ جسدها بالحبوب الحمراء "والشرية" ..

أما أحمد فقال إنه دخل بيارته ، وأحب أن يأخذ منها أربع حبات برتقال ، هدية لأهل بيته في عمان ، فأقبل عليه ساكن البيارة ، يهدده بالسلاح ، وأرغمه على رمي الحبات الأربع على الأرض وداس عليها قائلاً : هذه ليست أرضك ، اخرج من هنا. فنام في فراشه يومين يبكي على أرضه وبرتقاله.

ازدهار ذهبت تبحث عن بيت والدها ، هناك في يافا عادت لها ذاكرتها دفعة واحدة تعرفت على مدرستها "مدرسة الزهراء" ، وعلى مدرسة الذكور " العامرية " شاهدت مستشفى الدجاني وجامع النزهة، وسبيل أبو نبوت . ولما رأت بيت والدها دخلته ، ولما رأت الغرفة التي ولد فيها أخوها محمد، ظلت تبكي ساعتين.. لقد كان البيت مسكوناً من عائلتين قادمتين من بولندا ..

انتصار ذهبت إلى مدرسة أخواتها الأكبر منها وبكت على ساحتها ودرجها . رأت بيت عمها فعرفته على التلّة المقابلة

للبحر ، كانت تتدحرج هي وبنات عمها الصغيرات من أعلى التلة إلى أسفلها، كأجمل ما في الدنيا من ألعاب ..

عندما ذهبت " كاملة " إلى يافا تذكرت بربرة ويالها من ذكرى ..

يا بربراوي يا عنب

دخل فهيم إلى البيت مهللاً فرحاً... حاملاً بيده " كوشان" أرض جديدة، قال لهدى : وجهك عليّ سعد يا هدى .. اشتريت اليوم أربعين دونماً في " بربرة " ، لم تكن يوماً قد سمعت باسم " بربرة " ، فقالت: وأين هي " بربرة " هذه ، ولماذا الأربعين دونماً ؟...

- " بربرة " يا ستي قرية قريبة من مدينة غزة .. تبعد عن غزة حوالي عشرين كيلومتر .. إلى الشمال الشرقي منها.. أتعرفين سكة الحديد الواصلة من حيفا إلى رفح ؟إنها في الجانب الغربي منها .. أرضها ترابية ، ولكنها لمحاذاتها للشواطئ الساحلية على البحر الأبيض المتوسط ،ولوجود مناطق طينية على التلال المرتفعة ، فإنها منطقة زراعية من الدرجة الأولى... بل إن سكانها نشيطون جداً بالزراعة. هذه الأراضي التي اشتريتها مزروعة فعلاً عنب "من إللّي يشتهيه قلبك" ..في الموسم القادم

سترين حبات العنب من "بربرة .."

في زيارته التالية لبربرة ، اصطحب فهيم زوجته وابنته الكبرى "كاملة" ، لرؤية مزرعتهم الجديدة في بربرة ، شاهدوا كثبان الرمال حولها .. والأشجار المثمرة بالبرتقال والتين واللوز والمشمش والزيتون والرمان .. وأكلوا من الشمام والبطيخ والجوافة .. صلى فهيم في جامع القرية الوحيد ، وعلمت كاملة أن هناك مدرسة وحيدة ابتدائية في القرية ..

كانت ابنة مُزارع البيارة في مثل عمرها ... فلما لعبت معها في الأرض، سألتها عن اسم مدرستها ، فقالت لا أعرف .. فأنا لم أدخل المدرسة ولم أتعلم .. التعليم فيها للأولاد فقط ... أنا أُساعد أُمي في البيت بعمل البُسط " والمزاود "...

وأخذتها من يدها إلى البيت " البسيط " المبني من اللبِن ، وأطلعتها على بساط طويل مصنوع من خيوط الصوف الملونة ، وقالت أترين هذا المزواد ؟ أنا وأمي ننسجها .

أهدت زوجة المزارع بساطاً جميلاً لزوجة فهيم وابنتها كذكرى لزيارتهما لبربرة ..

بعد حوالي أربعين عاماً ومن بين الغيوم وآلاف السكان في عمان، تلتقي البنت الصغيرة بهدى وتزورها في بيتها ، وتسأل عن ابنتها "كاملة".. أصبحت البنت الصغيرة " أم خالد "، ولكنها لا تزال أُميّة لا تقرأ ولا تكتب ، وتلبس الفستان شبه

البدوي أو الفلاحي .. هاجرت وأهلها هي الأخرى من بربرة، أجبروا على ترك بربرة مع أن أهلها دافعوا عن أرضهم بالقليل الذي يملكونه .. طردوا منها بقوة السلاح ، فالتجأوا إلى غزة .. وهدم الصهاينة قريتهم ، والقرى المجاورة : قرية نعليا وقرية الجبة وبيت جرجا ..كل القرى المجاورة هدمت ،وأنشئت عليها مستعمرة صهيونية .

لا يزال صدى نغمات " فهيم " وهو يطعم زوجته "هدى" حبات العنب البربراوي ، وهو يقول:

يا بربراوي يا عنب .. ياه .. ياه

يا أبو العناقيد الذهب .. ياه .. ياه

كانت كاملة عندما قابلت " أم خالد " هذه قد أصبحت الدكتورة كاملة ، فقد أكملت تعليمها الجامعي مع أبنائها الأربعة .. وظلّت أم خالد تقول ، يا ريت أبوي علمني والله العلم حلو ...

ومع أن أم خالد أنجبت هي الأخرى البنين والبنات ، وسافر بعضهم إلى دول الخليج للعمل ، إلا أنها بقيت فقيرة الحال تتحسّر على الخير الذي كان في أرضهم وفي بيوتهم الطينية في بربرة ، وتتمنى أن تعود إليها ، فلا أجمل من أرض الإنسان وبيته ، حتى لو كان من الطين .. هناك ولدنا وإلى هناك سنعود ...

لم يكن قد بقي لأم خالد هذه إلا بعض الأصص الفخارية، تزرع بها الميرمية أو الريحان أو النعنع لكوب الشاي الذي تشربه..

أما فهيم فلم يبق له إلا متر من الأرض لزراعته ..

متر من الأرض

لم يترك فهيم عملاً أو تجارة في عمان،إلا وخاض غمارها.. هذا جاره اليافاوي يتاجر بالزجاج ، يستورده إما من سوريا أو تركيا أو حتى بلجيكا .. وفهيم يتقن اللغة الانجليزية وكتابة الرسائل، فيشارك في تجارة الزجاج .. وذلك تضمّنَ مزرعة زيتون ، ويسوّق تنكات الزيت في موسمها ، فيشاركه في الضمان والبيع .. وهناك معرض للمنتوجات الزراعية ، فيشارك في منتوجات زراعية ، أبدع في رعايتها ..

لم يكن عنده بعد في عمان أو ما حولها أراضٍ زراعية، فبعد أن سُلبت منه كل الأراضي والبيارات الزراعية في يافا وبربرة، أخذ يهتم بما لايزيد من متر أرض حول بيته ، زرع فيها " داليتين " أي شجرتي عنب ، واحدة ثمارها تدعى " بناتي " صغيرة الحب ، ودون بذو ر ، والأخرى تدعى ثمارها " حلبي " كبيرة الحب وحلوة المذاق ...

وبينها زرع شجرة رمان ، جميلة المنظر ، تحمل زهر الرمان برتقالي اللون على أغصان الشجرة البنيّة ، وأوراقها الخضراء.. ثم زرع شجرة خشخاش واحدة لا غير .. هذه الشجرة التي هي الشجرة الأساسية لزراعة شجر البرتقال أو الليمون أو الجريبفروت .. يُطعّمها المُزارع بطُعم الشجرة التي يريدها فتطرح في العام المقبل ، البرتقال أو الليمون أو الجريبفروت، كم شجرة خشخاش زرعها فهيم مع والده في بيارتهم في يافا.. وها هو في عمان يزرع شجرة واحدة لا يستطيع تطعيمها كما يريد .. يزرعها للذكرى فقط ، فالطقس هنا لا يناسبها ..

ثم زرع " ياسمينة بلدي " في آخر هذا المتر من التراب .. ياسمينة تعطي زهورها البيضاء أحلى الروائح—في الصيف- لكل من دخل البيت أو خرج منه .. وفي عصر كل يوم تقوم إحدى بناته بقطف زهور الياسمين هذه ، فتعطي ما لا يقل عن حمل صينية كبيرة ، وتقوم "بشكها" بالإبرة والخيط لعمل عقود الياسمين لأمها أو ضيوفها ، أو تربط عشر ياسمينات على عود خشبي ، وتلفها بخيط فتصبح "بروش" جميل يوضع على الصدر فيعطي الرائحة العطرية طوال السهرة ..

ولكن ما أبدعه من ذلك " المتر " من التراب هو شجرة يقطين ، اعتنى بها فأعطته ثمرة يقطين طويلة .. أخذها لمعرض المزروعات الذي كان برعاية الأمير الحسن بن طلال ، وتصوّر

مع هذه الثمرة الطويلة " طول الأمير ذاته " فنال عليها جائزة..

كان يتباهى أن عنقود العنب - من هذا المتر من التراب - يزن كيلو غراماً ..

هل كان يريد أن يقنع نفسه أو من حوله ، أنه لا زال يملك بيارات وبساتين ومزارع ؟ هل كان لا يزال يأمل أن يعود يوماً إلى يافا وبياراتها وبساتينها؟وإلى بربرة وعنبها ؟ أم أن هذا هو حال معظم الفلسطينيين في بلاد الهجرة ، أول ما يفعلونه حول بيوتهم هو زراعة الأرض أو التنكات أوالبراميل الفارغة ! فإذا كان اللاجئ من منطقة جبلية أول ما يزرعه هو الزيتون ، وإذا كان من الساحل زرع البرتقال والليمون ؟!

الثقافة والمطابع

لم يكن حديث اثنين أو أكثر عن يافا ، إلا ليؤكد دورها الريادي في الثقافة والحضارة .. عدد المطابع التي تصدر الكتب والجرائد والمجلات .. عدد دور السينما والمسارح ، عدد الأندية الرياضية والكشفية والثقافية .. الجوامع والكنائس والصيدليات والمستشفيات والمدارس ..

ميناؤها يستقبل الفنانين والمثقفين من القاهرة : أُم الدنيا..

إلى يافا:أُم الغريب .. وقطاراتها تسير إلى الشمال والشرق والجنوب ..

"وهدى" لا تترك مناسبة ، إلا وتذكر دور عائلتها في الحراك الثقافي والسياسي والاجتماعي في يافا.. صورة سلفُها المناضل خالد وهو يحمل جرائد ومناشير وخطابات يلقيها هنا وهناك للدفاع عن يافا ، دوره في تعزيز مقاومتها قبل سقوطها. مسؤوليته عن المقاطعة لأي بضاعة تمتُّ بصلة إلى الصهاينة.. وحرصه على عدم السماح للشباب الفلسطيني بزيارة تل أبيب أو التعامل بها ...

حديثها عن قريبها "سامي الأصفر"، وكيف استشهد هو وشقيقه الأصغر "شفيق" وهو يجهز قنابل يدوية للمشاركة في الدفاع عن يافا .. ذكرياتها عن انفجار دار السراي للأيتام في يافا ، وهدم يافا القديمة ...

فلما كبر الأبناء ، أحسّ كلٌ منهم أنّ عليه أن يواصل ما بدأه أهله في النضال ، وإن بصورٍ أخرى.. إن من الكويت أو الرياض أو القاهرة أو حتى أمريكا وكندا وأمريكا اللاتينية ..

قام ابن العم في الكويت بطباعة كتاب ضخم ، يوثق مجزرة "صبرا وشاتيلا" .. ثم قامت "ازدهار" بطباعة كتاب يوثق الطبخات الفلسطينية ، وأصدرت الدكتورة "كاملة" كتباً عن العلاجات النفسية دون أدوية ، وأسست "رضا وأختها"

دار نشر وتخصصت الدار بكتب المقاومة للأطفال ..لقد تشرد الفلسطيني في أصقاع الأرض ، ومنها كان يرفد قضيته بشكلٍ أو بآخر ..

رحلة العلم

لم يكن من السهل على كاملة أن توئد أحلامها بالعلم والشهادة . صحيح أنها أمضت ما يقارب ثلاثين عاماً في إنجاب أطفالها الأربعة وتربيتهم وتطريز ملابسهم ، والسهر عليهم إذا مرضوا ، ومتابعتهم إذا راهقوا ، وإعداد حفلات أعياد ميلادهم واستقبال أصدقائهم ، ومتابعة دراستهم أولاً بأول ؛ إلا أنها ظلّت تحلم بما حُرمت منه وهو العلم ..

ولم يكن من السهل عليها إقناع من حولها وأولهم زوجها بعزمها على التسجيل لدراسة "التوجيهي من منازلهم" وقد فعلت ، فسجّلت بالخفاء ، وأخذت تدرس في كتب ابنها الأصغر الذي كان على مقاعد التوجيهي .. ونجح ونجحت .. وقدّم أوراقه للجامعات ، وقدمت ، وقُبلت بالجامعه الأردنية وبدأت بالدوام. هل كانت أكبر سناً من بعض أساتذتها ومن كل زملائها ؟ هل كانت أكثر دافعيةً وانضباطاً ودواماً من معظم رفاقها؟متى كانت تدرس ومتى كانت تزور الأهل والأصدقاء وتدعو الأقارب والمعارف كأي زوجة وصاحبة بيت ؟ لم يأخذ زوجها الأمر ولا

أولادها على محمل الجدّ ، فقد ظنّ الجميع أنها بعد أشهر ستترك الموضوع وتنساه .. ولكنها ثابرت ، وفي غضون أقل من أربع سنوات تخرّجت .. والمفاجئ أن تقديرها كان جيدجداً .. إذن الطريق مفتوح أمامها لنيل الماجستير ولم لا ؟!

قدمت الطلبات وقابلت المسؤولين .. كان العائق أمام لجان قبولها هو عمرها .. ولكنها كانت تحمل الجواب المناسب (ومن قال أن ابن العشرين سيستفيد من شهادته أكثر مني ؟ الأعمار بيد الله) وبرز عائق آخر وهو ضرورة العمل بوظيفة رسمية للحصول على مقعد الماجستير ، وقدّمت ونالت الوظيفة ، وعلّمت في مدرسة ثانوية للبنات

لم يكن من السهل عليها العمل في وظيفة وهي التي لم تمارس العمل الوظيفي في حياتها.. ولكنه الإصرار على مواصلة الطريق .. وبعد الماجستير سجّلت للدكتوراه في مصر ، وازداد الأمر تعقيداً ، وظيفة هنا ، وسفر إلى هناك ، وأعباء عائلية طبيعية ولكن متزايدة .. صحيح أن الأبناء كبروا ، ولكن كما يقول المثل "كبر همهم معهم" ، فهذه ستتزوج وتلك تكمل تعليمها ، وذلك يبحث عن عمل ثمّ عن عروس .. والزوج يرضى يوماً ويتذمّر أياماً ، بل ويخترع الطلبات لإلهائها عن دراستها،والدكتوراه بحاجة إلى سفر إلى القاهرة ومقابلة المشرفين على الرسالة اسبوعياً ، والوظيفة لها متطلباتها ..

هل كان لأحد فضل في مثابرة كاملة على نيل الدكتوراه؟ وهل تقبّل من حولها من أقارب ومعارف وأهل هذا " النضال والجهاد " في سبيل العلم الذي حُرمت منه وهي في مرحلة الشباب ؟ ولكنها الدافعية القوية بحتمية نيل الشهادة والوصول إلى الهدف .. وقد نالتها .. وعندما افتتحت عيادتها للتربية النفسية والعلاج النفسي دون أدوية، كان لقب "الدكتورة" أهم ما في الموضوع ، إنّ لها وإن لزوجها وأولادها ، وإن لعائلتها الأكبر، أمها ، إخوتها وجميع معارفها .

كانت رحلة تستحق الإشادة والتكريم ، فما حققته على الستين من عمرها ، يصعب تحقيقه عند الشباب في الثلاثين ..

هذه رائحة طبيخ أمي

كل إنسان يحب أن يتميز بأمرٍ ما عن الآخرين .. تلاحظ ذلك منذ الطفولة .. يُحب بعضهم هذا الرياضي فينبري الصغير ليحب رياضياً آخر . يحب الأخ الأكبر هذا الطبق ، فيخالفه الآخر باختيار طبق آخر..هذا يسلك منحى علمياً في المدرسة ويبدع ، يكره الآخر المدرسة ويقبل على الدين يشبع به فكره وعقله .. التميز في أمرٍ ما ديدن الإنسان في هذه الحياة ، وسر التنوع فيها .. وإلا كنا كالآلات الروبوتيه نُشبهُ بعضنا بعضاً ...

في أوائل الخمسينيات حوالي ١٩٥٥ سافرت الإبنة ازدهار

إلى الكويت مع زوجها طبيب الأسنان ، كان والداها قد وافقا على زواجها من طبيب أسنان يمتلك عيادة لطب الأسنان في وسط البلد – عمان – بمعنى أنهما اطمأنا أن ابنتهما ستكون قريبة منهما.. فالأولى كاملة قد " تغربت " بالسفر إلى رام الله التي تبعد عن عمان حوالي ٧٠كم.. فلعل الثانية تسكن قريباً منهما ولا تتغرب .. ولكن ازدهار تغربت فسافرت وزوجها إلى الكويت بعد أقل من سنة من زواجها .. كان السفر إلى الكويت يعني رحلة " برية " شاقة وخطرة بالسيارة تمتد لأكثر من عشرين ساعة ، تخترق صحراء بادية الشام وتعبر العراق من خلال بغداد والبصرة وتسير على طرق معبّدة وغير معبدة ...

وعندما خطبت البنت الثالثة افتخار لتسكن في الكويت أيضاً، رضخ الأبوان وأحسّا أن ذلك قد يكون أقل غربة لابنتهما السابقة .

وفي الغربة،تعتمد البنت على نفسها لإعداد الأكل الذي كانت تأكله في بيت والديها ، وتعاني حتى تصل إلى " طبختها " الخاصة في الأطباق المنوعة التي تعدها .....

في ذلك اليوم دخلت الأخت الأصغر إلى بيت أختها ازدهار، وشمت رائحة الأكل فذكرها بطبيخ والدتها .. كانت "حاملاً وتتوحم " وكانت تسكن في بيت أهل زوجها ولا تطبخ ، فلما شمت رائحة الأكل صرخت وقالت " ياه هذه رائحة طبيخ أمي وهو ما أشتهيه "...

وطبعت الملاحظة في عقل الأخت،وأحست أن لكل شعب أكلات شعبية خاصة به .. وأنه يظل يحن إلى خبز أمه وقهوة أمه مهما ابتعد عنها.. فكما يرث المرء جينات لون بشرته وشعره وعيونه، يرث جينات – ولو غير عضوية – تحمل ثقافة أهله سواء في الموسيقى أو في العادات والتقاليد أو في الأكل واستعمال التوابل واستعمال الزيوت والدهون ، وطرق الطهي وغيره ...

من هنا كانت البداية والنهاية .. لقد أصدرت ازدهار كتاب " ولا أطيب من صحن الدار" به (٥٠٠) وصفة لصناعة الأكل بكافة أشكاله ، ثلاثة أرباعها من الوصفات الفلسطينية ..

علم يُنتفع به

أما البنت افتخار فكان لها باعٌ آخر .. لم تكن تترك الكتاب المدرسي وتطفئ نور المصباح قربها ، إلا إذا جاء والدها وأخذ منها الكتاب وأطفأ النور ، ودعاها إلى النوم .. " يكفي دراسة يابا.. نامي هلأ أحسن"كانت تساعد أخواتها وأمها ، وتدرس.. تنظف شبابيك الدار ، وتدرس ، تنهي شطف الدرج ، وتدرس تستيقظ باكراً وتسمّع الدروس والقصائد والمحفوظات والقرآن.. لم تكن ترضى أقل من الأولى ،فلطالما سمعت والدها يكرر :

العلم يبني بيوتاً لا عماد لها

والجهل يهدم بيوت العزِ والكرمِ ...

فهل سيكون دورها في الحياة رفع عماد بيت والدها ، أم هدمه ياترى..

ألا يكفي هدم الصهاينة لقرى وبيوت الفلسطينيين ؟

كل النشاطات المدرسية ساهمت بها .. بطولة المسرحيات المدرسية كانت لها .. جمالها أخاذ ، وصوتها معبّر ، وقدرتها على الحفظ والاستيعاب عالية ..

لم تكد تنهي المرحلة الثانوية وتأخذ شهادة "المترك" حتى جاءها العريس ، ففضل والدها الزواج على كل الشهادات، وانتقلت بدورها إلى الكويت .. فهل انتهى دورها هكذا في الحياة..هل سيكفيها إنجاب الأطفال وطبخ الطبيخ وغسل الملابس ؟

عملت في التدريس في مدارس الكويت العامة ثم الخاصة. كانت الكويت قد فتحت أذرعها لكل الجنسيات للعمل فيها ،وكبرت الجالية الفلسطينية،وزاحمت طلاب الكويت في مدارسهم .. صحيح أن كثيراً من المدرّسين كانوا من الفلسطينيين،ولكن مقاعد الدراسة لم تعد تكفي الفلسطينيين.. فلما منعت الحكومة الكويتية الفلسطينيين من دخول المدارس العامة الحكومية ،انبرت افتخار وأخواتها وأزواجهن لفتح مدرسة خاصة للأطفال والشباب العرب ، كانت "مدرسة المنهل" من أوائل المدارس الخاصة في الكويت، ثم انتقلت بها

ومعها إلى عمان.. وأصبحت مدارس يشار لها بالبنان .. تربية وتعليم وقيم ،وأخلاق وإخلاص ووطنية...

عندما جاء أول وفد من سكان يافا العرب إلى عمان ، كان اللقاء غريباً عجيباً .. هؤلاء المنسيون – أهل الكهف – يعودون إلى وطنهم وحضنهم العربي ، فيخاف منهم العرب والفلسطينيون ..قالوا : نحن من بقينا في يافا بعد تركككم لها .. صمدنا فيها ، وضحيّنا ، تحملنا سياج الموت والسجن الكبير.. حاصرَنَا اليهود ومنعونا من السكن حتى في بيوتنا ، وصادروا بيوتنا أمام أعيننا ..وصبرنا وصمدنا ، وها نحن بعد الصحوة، بعد كسر حاجز الخوف ، نعود إليكم ، لنمد جسور المحبة، فكيف تخافون منا ، وكيف تعتبروننا غرباء عنكم ..

كانت المعادلة صعبة .. هل هم الأهل أم هم حاملو الجنسية الإسرائيلية ؟ هل هم بقايا الوطن أم جسور التطبيع ؟

وانتصرت يافا .. انتصر الدم العربي على الحِبر الإسرائيلي: حبر جواز السفر الإسرائيلي . ودعمت افتخار وأخواتها وأصدقاؤهم الوجود العربي في يافا،ومدوا جسور التعاون مع أهلها،وساعدوا في تأسيس مدرسة عربية للأطفال فيها، لتعليم العرب هناك لغة بلادهم ودينهم ، ودعموا إنشاء أول مطبعة عربية بعد دمار عشرات المطابع أثناء الإحتلال الإسرائيلي لها.. لقد شاركت افتخار بشكل أساسي في تأسيس اتحاد المرأة

الفلسطينية في الكويت ، ومشغل بيت المقدس للتعريف بالتراث الفلسطيني ، ودعمت من خلال ذلك ، العمل الفدائي بالتبرعات النقدية والعينية.

غرزة تطريز / هويّة وطن

كل غرزة تطريز هي هوية .. وكل ثوب فلاحة أو بدوية هو مدينة بحالها .. وكل قرية فلسطينية لها هويتها ولها لباسها، ولها عاداتها وتقاليدها .. فمن يحفظ هذا التراث ، وهذه الهوية، ومن يلملم هذه القرى والمدن لينسج الوطن ؟

من يعيد للفلاحات في قراهن ومواسم أعيادهن وأفراحهن وأتراحهن،ذكرى الوطن؟. كيف وقد ضاعت الأرض ، وهجر الناس البيوت ، وتوزعوا في أصقاع الأرض : إلى الخليج ، إلى لبنان ، إلى سوريا ومصر ، إلى أمريكا وكندا وأمريكا اللاتينية.. كل بقاع الأرض هاجر إليها الفلسطيني ، وما عاد يحمل مهباشاً ولا مدقّة ولا فستاناً ولا قمحاً ولا شعيراً...

نسي الناس مواسم الحصاد أو الحرث أو الدّرس أو عصر الزيتون، نسوّا مواسم تخزين الجبنة أو عمل السمنة أو تنشيف التين..ونسوّا أو تناسوا تراثهم وعاداتهم وتقاليدهم أصبح

لبس الثوب الفلاحي شبهة على المرأة أو قل عاراً تحمله فوق جسدها ورأسها ..أضحت " المدنية " تعني تغيير اللباس وتقليد الغرب،البنطلون أكثر حضارة وتقدماً من السروال..فستان السهرة الطويل أكثر رقياً من الفستان الفلاحي أو البدوي الطويل..الطقم الأوروبي لا العباءة .. ارتبط الزي التراثي بالفِلاحة بمفهومها الدوني عن المدنية والحضارة .. وكادت فلسطين تفقد أهم ميزة وهي اللباس .. الهوية ...

ولملمت " انتصار " ذاتها ، وقررت " الهجوم " على هذه المدنيّة الزائفة برفع شأن اللباس القومي .. هل تذكرت يوماً تنورتها التي خاطتها وهي بعدُ صبية ورسمت عليها الدول العربية موحّدة ؟.. إذن اللباس معركة وشعار قومي وأيدولوجيا وفكر تقدمي ، ونضال ، وثقة بالنفس واعتزاز بالماضي والحاضر والمستقبل .. المرأة التي كانت تلبس الفستان للحقل، يمكنها أن تلبسه في الصالون ، أو الحفل ... والمرأة التي كانت تحلب البقرة بلباسها التقليدي ، يمكنها أن تواصل تعليمها بلباس تقليدي أو مطوّر..لماذا إذن نهرب من الماضي ، ولا نهرب إليه باعتزاز واقتدار .. من هنا قامت انتصار بتطوير التراث الشعبي الفلسطيني ، ليدخل البيوت الفارهة والحفلات الكبيرة، والقصور الملكية ، والمناسبات العادية .. ولتعود ذكرى مدن يافا وغزة والنقب ورام الله والقدس ...

هذه غرزة الصليب ، وتلك رمز سنبلة القمح ، وتلك أزهار الليلك ، وهذه وردة الأقحوان ، وهذا عصفور الجنّة ، هذه "القطبة" تناسب صدر الفستان أو كمه ، وتلك تناسب "البيانق" أو جوانب الفستان ..

ألوان خيوط الحرير الملونة ، وذوق السيدة التي تطرز ، وإتقان التطريز وكثافته ، وأشكال التطريز ، تختلف من مدينة إلى أخرى ومن مستوى اجتماعي لآخر..

هجمة الصهاينة ، بعد الأرض والبيوت والأثاث والماء و..و.. وصلت إلى التراث الشعبي والتطريز والملابس .. استغل الصهاينة الأيدي الماهرة الفلسطينية ، وطرزوا الأثواب وادّعوها لهم .. ولكن " انتصار" انتبهت لهذا مبكراً ، فأعادت اللباس الشرقي للمرأة الشرقية وأبدعت وابتكرت وطورت واستفادت من مهارة يد المرأة الفلسطينية في التطريز .. وزرعت حُب هذه المهنة في الآف السيدات اللواتي امتهنّ هذا العمل .

كم أسرة فلسطينية في المخيمات علّمت أولادها من ريْع التطريز!!

تاريـــخ يافـــا

مدينة يافا من أقدم المدن الساحلية ، على البحر الأبيض المتوسط .. قلب العالم القديم ، يقولون إن اسمها يافا جاء من

اللغة الكنعانية "يافو" أي الجميلة .. فهي المدينة الجميلة، وهي حقاً كما يُجمع جميع من رآها أنها جميلة ، لعلّ التلّة المرتفعة على ساحلها ورملها الناعم، وشجرها أعطاها كل هذا الجمال.. وإلا فماذا تختلف عن المدن الساحلية على البحر المتوسط ؟..

لماذا يؤكد المؤرخون والسياح والسكان وكذلك اسمها أنها مدينة جميلة ؟

وما أكثر الكتب التي تتحدث عن يافا .. فلا توجد حملة عسكرية منذ عهد الإسكندر المقدوني ، بل منذ عهد الفراعنة وحضارة ما بين النهرين ، إلا وتحدثت عن دخول يافا أو احتلالها أو صمود حاميتها أو تراجع الجيوش الغازية عن أسوارها .. وكل موسوعات العالم القديمة والحديثة تتحدث عن يافا وميناءها والحروب التي جرت على ترابها .. والكتب القديمة والحديثة أفردت ليافا جانباً كبيراً من صفحاتها .. ولما كانت النكبة وتوزع أبناؤها في أنحاء العالم ، ولما بدأ الحنين إليها يغزو قلوبهم ، ولمّا لملم الفلسطيني واليأس نفسه وعقله وفكره ، وتحسّس قلمه، بدأت الكتب تصدر عن يافا ، فهذا كتاب " يافا الحنين الأبدي" لسمير فوزي الحاج ، و " يافا مشاهد شوق وحنين" لطاهر قليوبي ، وموسوعة " يافا الجميلة " لعلي البواب ، و" يافا عطر مدينة " لامتياز دياب ، و " تاريخ يافا من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر "لإلياس الرنتيسي ، و"بين الوطن

والمنفى "لشفيق الحوت ، و"حكايات عن يافا- ذكريات " لخيري أبو الجبين .. وغير ذلك الكثير الكثير..

وإذا كان تأسيس جمعية لأبناء يافا تأخر كثيراً ، إلا أن " جمعية يافا للتنمية الاجتماعية " تسجلت في عمان ، كما "جمعية يافا العربية " تسجلت في مدينة الزرقاء عام (١٩٩٠) واشتركت البنات اليافيات كعنصر أساسي في جمعية عمان .. فافتخار وازدهار وروضة، كنَّ في الهيئات الإدارية المتعاقبة فيها، يشاركن في كافة نشاطاتها المسرحية والاجتماعية والتمويلية ، وفي سهرات الأحاديث والذكريات، وشاركت افتخار في إعداد كتاب " أعلام من يافا".. أصدرته الجمعية. ورأست روضة تحرير مجلة " نشرة الفلوكة الدورية"، وأعدت مسرحية بعنوان "شارع اسكندرعوض " عن أحد شوارع يافا المهمة التي ألقت الضوء على حقبة تاريخية مهمة في يافا ، وتفاصيل حوادث إضراب الستّة أشهرعام ١٩٣٦ ، وقيام الإنجليز بهدم الوسط التجاري فيها ، حيث الأزقة والبيوت الضيقة ، بحجة تجميل المدينة ، والحقيقة أنه القضاء على الثوار العرب الذين يختبئون في هذه الأزقة بعيداً عن دبابات وآليات الجنود الإنجليز ..

لم يغِب تاريخ يافا عن اهتمام أهلها ، ولم تغِب أسماء أحيائها العجمي والنزهة ، والمنشية وسكنة أبو كبيرعن أرواحهم ، وظل

اسم سبيل أبو نبوت ، وسبيل خان الدرهلي،وسبيل المحمودية من الأسماء العالقة في أذهانهم ، بل إن كل حجر أو شجر في يافا قد أُعيد قلبه والبحث فيما تحته أو خلفه عن تاريخ هذه المدينة الجميلة !! .

هل خفرنا ذمَّةً مُذْ عرفانا ؟

دخل محمد على والدته هدى يخبرها بعزمه على السفر إلى الموصل في العراق ..

- الآن ؟ والحصار على العراق على أشده ؟..

- نعم .. هو الآن .. ولأن الحصار على العراق على أشده..

- ولماذا ؟

- لقد درستُ الطب في الموصل .. وتتلمذتُ على يد أفضل الأساتذة العراقيين ، وأعطوني أفضل ما لديهم من علم وعلاقات إنسانية ورعاية..والحصار قد استنفد كل ما لديهم، فهل تتبرعين معي لشراء مواد طبيّة أُرسلها لكلية الطب في الموصل؟إنهم بحاجة للمواد الأولية الطبية،خيوط جراحية .. أمصال ، إبر طبية ، أوراق تصوير أشعة ، أدوية .. وأمور أخرى لا تعرفينها ، تحتاجها كليات الطب ..

وعادت الذاكرة بهدى إلى يوم قبوله في كلية الطب في الموصل وسفرها للاطمئنان عليه هناك . كان ذلك في أوائل عقد الستينات،كان الوضع المالي للعائلة مستوراً ، ولكنه لا يكفي للإنفاق على البيت والأولاد والدراسة الجامعية أيضاً... فأرسلت برسالة إلى "سلفها الحاج خالد" في بيروت علّه يساعد في توفير بعثة لابن أخيه للدراسة في الموصل .

كان " الحاج خالد " مسؤولاً بحكم عمله في الهيئة العربية العليا ، على إرسال طلبة فلسطينيين للدراسة في جامعات بعض الدول العربية ودول أوروبا الشرقية ، وقد وافق على إرسال ابن أخيه إلى الموصل .

وسافر الشاب وحيداً إلى الموصل،وظل قلب أُمه قلقاً عليه في تلك المدينة البعيدة .. فكيف تتركه للمجهول هكذا ؟.

لقد كانت الكلية حديثة العهد ، لم يمضِ على تأسيسها أكثر من عامين .. فكيف تطمئن عليه ؟

حزمت أمرها وسافرت إلى الموصل عن طريق دمشق ثم حلب ، ثم إلى الشرق إلى الحدود السورية العراقية ، ثم الموصل، مسافة طويلة..آلاف الكيلو مترات ، وصلت واطمأنت ثم عادت!!ويا له من مشوار طويل ومتعب .

لكن الدنيا في ذلك الوقت لم تكن كاليوم..فالحصار اليوم على العراق من كل جانب والدول الغربية تخطط للإنقضاض عليه في أي لحظة..واسرائيل تحث أمريكا على تحطيم العراق وهدم كل إنجازاته.. فكيف يخاطر ابنها اليوم بنفسه وماله ويسافر إلى الموصل ؟..

ولم تمضِ أيام ، حتى حمّل محمد ثلاث شاحنات بمواد طبية لجامعته، جمع ثمنها منه ومن أقاربه ومعارفه وسافر بها للموصل ..

عندما دخل كلية الطب في الموصل ، لم يصدّق العميد ولا الأساتذة عيونهم .. كان لا يزال عدد منهم يعرف هذا التلميذ الأردني الفلسطيني، ولكنهم لم يتصوروا أبداً انه سيعود إليهم حاملاً جميلهم في تعليمه ، مستذكراً دور العراق الكبير في نصرة قضايا الأمة العربية ، والثورة والثوار الفلسطينيين ، بمن فيهم عمه خالد . لقد سمع محمد مراراً وتكراراً عن بطولة الجيش العراقي في حرب فلسطين ، كما قرأ عن مقبرة مقامة في جنين للجنود العراقيين، فإذا كان النصر لم يحالفهم أو يحالفنا ، فهل نخون العهد؟ ألم يقل الشاعر الأخطل الصغير " بشارة الخوري " :

سائل العلياء عنا والزمانا
هل خفرنا ذمَّةً مُذْ عرفانا ؟
المروءاتُ التي عاشت بنا
لم تزل تجري سعيراً في دِمانا

كان دخول هذه الشاحنات، وحمولتها، وصعوبة الطريق وضيق الحصار، وشح المواد الطبية في الكلية ووفاء هذا الطالب.. حديث المدينة !!

أراضٍ مُحتلة

عندما سافرت ابنتها الصغرى إلى القاهرة للدراسة في جامعة القاهرة ، لم تكن تتصور هدى أن ابنتها لن تستطيع العودة إلى بيتها في رام الله،نتيجة حرب جديدة .. بل إنها لم تودِّعها حقاً قبل سفرها، لثقل الأمر على نفسها ، فهي ابنتها الصغرى الوحيدة الباقية عندها في بيتها،بعد زواج كل البنات الأكبر سناً ، وسفرها وحدها قد يعرضها لمشاكل اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية جمّة .. وهي دون أب يتحمّل مسؤولية سفرها ومصروفها .. ولكن تفوق البِنت وإصرارها على السفر، ونيلها بعثة من وكالة الغوث " الأونروا " لتعليم اللاجئين ، أرغمها على القبول .. لم توصِ ابنتها كثيراً .. جملتين أو ثلاثة: " ديري بالك على حالك وارفعي سمعة العائلة .. الحب لا يأتي من النظرة الأولى،فلا ترتبطي بأية علاقة مع أي شاب لا يناسب العائلة في الدين أو الوضع الاجتماعي " .

وتركت هدى منزلها إلى منزل أحد الأقارب ، حتى تم سفر ابنتها ، فالوداع مؤلم ..

وكانت القاهرة في عهد المدَّ القومي الكبير ، في عهد جمال عبدالناصر، الذي كان يلهب مشاعر العرب من الخليج إلى المحيط بخطاباته الوطنية .. وكانت قضية فلسطين وطرد الاستعمار ومقاومة الاحتلال أهم " مفرداته " في كل خطاباته.. بل إن عائلة هدى كانت تتابع كل خطاباته ومواقفه السياسية أولاً بأول: تأميم قناة السويس،بناء السد العالي،دحر العدوان الثلاثي ، إعلان الوحدة مع سوريا ، بناء القوة العسكرية المصرية ، استيراد الأسلحة السوفياتية والتشيكية، محاربة الفساد ، توزيع الأراضي الزراعية على الفلاحين .. كثير وكثير من القضايا التي تلهب حماس المواطنين العرب في كل مكان ..

وهل كان بالإمكان أن تبقى البنت الصغرى بعيدة عن هذه الأجواء السياسية والحماسية ؟..

اشتركت في اتحاد الطلبة الفلسطينيين في القاهرة ، ومع اتحاد المرأة الفلسطينية ، وشاركت في النقاشات السياسية مع أعضاء الأحزاب المختلفة ومع قياديين في الدولة المصرية.. وكانت تنتظر ورفيقاتها النصر المؤزر في المعركة القادمة مع العدو الإسرائيلي ، فصواريخ " القاهر والظافر " وطوربيدات السفن البحرية ودبابات الجيش ومعداته : الجوية والبحرية

والبرية ، ستحسم النصر دون أي شك ..

وعندما وقعت الهزيمة المُنكره عام ١٩٦٧ ، ونزلت البنت إلى شوارع القاهرة استنكاراً لتنحي " زعيم الأمة " كاعتراف بالهزيمة ، وعندما هدأت الأحوال ، لم تستطع العودة إلى بيتها في رام الله في فلسطين ، فلقد تحركت الحدود من موقعها الأول، وضمّت مواقع جديدة إلى رقعة الاحتلال الإسرائيلي !!

هل تتوقف الحروب ؟ وهل تنتهي معاناة البشر ؟..

الحروب منذ عهد آدم وإلى أن يرثَ الله الأرض وما عليها مستمرة... وما قَتْلُ قابيل لأخيه هابيل إلا الحرب الأولى التي فقد فيها العالم ربع سكانه !!.

ولكن الحياة لا تتوقف .. ومسؤولية هدى في تعليم أبنائها مستمرة.. ولا يزال عندها الطفلان – الشّابان - اللذان ولدا بعد النكبة ، خليل ومحمود ..

وسافر خليل إلى القاهرة لدراسة هندسة الاتصالات .. ثم وبعدها سافر محمود إلى انجلترا لدراسة الهندسة أيضاً .. وواصل محمود دراسته إلى أن نال شهادة الدكتوراه من جامعة مانشستر في انجلترا.

وبعد التعليم يأتي الزواج ، تلك سنة الله في خلقه .. وذلك إيمان العبد الفقير لله بأن مال التعليم والزواج يسهّله ربنا

ويبارك فيه ..

كواشين / قواشين ...

بانتقال فهيم وعمله وعائلته من يافا إلى الرملة ،كان أهم ما نقله معه "كواشين" الأراضي والمحلات والعقارات ، وكافة الوثائق الرسمية للعائلة والأولاد ... فقد كان يقدّر أهمية هذه الأوراق الرسمية في حياة أي فرد .. صحيح أنه لم يكن يتوقع عدم العودة ليافا ، وأن مسؤولاً آخر قد باشر عمله بإدارة "الوقف" لصالح العائلة ، لكن أهمية الوثائق الرسمية كانت كبيرة ، بحيث حرص على وضعها في أهم مكان في الشاحنة التي أقلته إلى رام الله ومن ثم إلى عمان ..

فهل سلمت هي الأخرى من أيدي اليهود ؟..

انتقلت أهمية هذه الأوراق الصفراء – القديمة – المتآكلة – المكتوبة باليد وبالحبر الصيني ، بعضها من العهد العثماني وبعضها من الحكم الانجليزي ، انتقلت ودون رعاية أو عناية من مكان إلى مكان مع انتقال العائلة ، وعندما دخل اليهود عام ١٩٦٧ مدينة رام الله ، حيث تسكن هدى وأوراقها ، كان الشيء الوحيد الذي أخذه الجندي ، هو هذه "الصحارة" الكرتونة التي تحوي الأوراق والوثائق والكواشين ، التي تثبت ملكية العائلة

لأرضها وتاريخها ومولدها وشهادات أولادها في فلسطين ..

ولم تستطع هدى - ولا يستطيع أي فرد – أن يمنع الجندي الإسرائيلي – المدجج بالسلاح من رأسه حتى أخمص قدميه - من تناول أي غرض في أي مكان وفي أي وقت من الأوقات،وانسحبت " الصحارة " الكرتونة كما تسحب الشعرة من العجين ، لا إثبات ولا مطالبة ولا اعتراض .. وظلّت هدى لأعوام تتحسّر على هذه" الصحارة " تماماً كما تحسّرت على آلاف الأمور الأخرى ..فهل كانت هذه" الصحارة " تحمل كل الوثائق ؟..

لحسن الحظ لا .... فقد اكتشفت البنات فيما بعد مكاناً آخر كان يوجد فيه أوراق ووثائق وكواشين أخرى للعائلة في يافا لم تصلها يد الجندي اليهودي .. وابتدأت عملية الترميم والأرشفة.. ولكن بعد سنوات ...

في علم المكتبات ، يدرس الباحثون الطرق العلمية الحديثة في علم" ترميم المخطوطات والأوراق القديمة " ولكن ترميم أوراق العائلة لم يتم بهذا الأسلوب العلمي..قامت البنت الصغرى بوضع لاصق شفاف على الأوراق المثنية الأطراف ، ثم صوّرتها على " السكانر " scanner ، ثم وضعتها على CD واحتفظت بالأصل في دوسية ..إجراء عادي غير مهني ولكنه مرضٍ للذات: لقد فعلتُ شيئاً ما ...

حاولتُ وبصورة فردية أن تسأل إذا كانت دائرة الأراضي والمساحة في عمان تحتفظ بكواشين فلسطين من أيام حكم الانتداب البريطاني،فقال لها أحد الموظفين إنه– وعلى حدّ علمه – لا يوجد أصول لمثل هذه الوثائق ، وإن مياهاً كانت قد أتلفت بعض الوثائق القديمة لسوء حفظها،وإنه قد تكون بريطانيا قد احتفظت بذلك ، ولكن الوصول إليها صعب أو مستحيل ..

صحيح أن الحكومة العثمانية كانت تحتفظ بسجلات كثيرة لفلسطين ،ولكن أن يصل إليها فرد قد يكون أمراً مستحيلاً ، وهو أمر يجب أن تقوم به " دول " وليس أفراد ..

واحتفظت البنت الصغرى"بالأوراق والكواشين المتبقية" "ما تبقى لكم" واحتفظت بالـ CD ، وحاولت توزيع نسخ منه لشباب العائلة وأبناء العم ومن " يحلم " بالعودة أو استرجاع الحقوق المسروقة ..

فمن من الأبناء أو الأحفاد يمكن أن يقوم بهذه المهمة؟

وإلى أي حد سينجح ذلك؟

التقـــــصيـر

بعد حروب الاستنزاف : حرب رمضان أو تشرين التي انتصرت فيها مصر وسوريا على القوات الإسرائيلية عام ١٩٧٣، أصدرت إسرائيل كتاباً بعنوان " التقصير"... وهو الكتاب الذي يبحث جوانب التقصير في الكيان الإسرائيلي الذي أدى إلى هذه الهزيمة أمام القوات المصرية والسورية .

شكّلت الحكومة الإسرائيلية لجنة مكونة من ست شخصيات، لمحاسبة رأس الدولة "جولدا مئير" ، ووزير دفاعها "موشى ديان " وجهاز المخابرات الإسرائيلية وقادة الجيش الإسرائيلي، لتحديد أسباب هزيمة القوات الإسرائيلية أمام القوات المصرية في سيناء وبالتالي سقوط خط "بارليف" في شرق قناة السويس، وأمام القوات السورية في هضبة الجولان..كل ذلك لتحديد المسؤولين عن التقصير في الدفاع، وبالتالي النصر على "الأعداء" .

وبالرغم من مرور الأعوام الطويلة على سقوط يافا وهزيمة العرب أمام القوات الإسرائيلية ، إلا أن الشعور بالتقصير كان يملأ نفس هدى وبناتها وأبنائها، ذلك أن من يحمل هماً وقضية يجبُ أن يفكر به ويعمل له ليل نهار..

في التمني،في الأحلام ، في الكتابة وفي المسرح ،في التربية وفي التعليم في الاجتماعات العائلية ، وفي الاستقبالات .. مع الجمعيات الخيرية والمنتديات ومع الاحتفالات الوطنية ..

فمن يحمل مسؤولية التقصير في القضية الفلسطينية؟ وماذا على الشعب أن يعمل لتغطية جوانب التقصير ؟

هل يكفي أن تشارك وتدعم وتتبرع لأمسية عن يافا هنا أو هناك ؟ هل يكفي أن تشارك وتدعم وتتبرع في حفل غداء خيري لدعم القدس هنا أو هناك ؟ هل يكفي دعم مؤسسة دار الطفل العربي للأيتام في القدس ؟ هذه الدار التي تأسست عام النكبة ١٩٤٨ إثر مجزرة دير ياسين التي كانت حجر الزاوية في تهجير معظم قرى فلسطين حينها ؟

هل يكفي انشاء جمعيات خيرية في الكويت أو عمان أو الزرقاء أو بيروت ، وتعليم شباب وشابات من هذا المخيم أو ذاك ، والمشاركة في الندوات السياسية وغير السياسية ، أو المظاهرات أو ورشات العمل ؟

كم من النشاطات في مجال التعليم والصحة والثقافة والأدب والدين وغير ذلك لدعم قضية فلسطين وشعبها ، شارك فيه أبناء الشعب العربي عامة والفلسطيني خاصة ..

كم من أبناء هذه الأمة حمل السلاح رسمياً وغير رسمي، مع الجيش أو مع العمل الفدائي ، سراً أو علناً .. مع هذا الحزب أو مع تلك الجبهة .. ولكن ..

ولكنه "التقصير" التقصير هو الشعور الذي ينتاب هدى وعائلتها الممتدة..فلا زال الوطن محتلاً ، ولازالت الأرض مغتصبة ، ولازالت سجون العدو مليئة بالسجناء، لا زالت يافا وأبناؤها دون حقوقهم الانسانية بل وتنتشر فيهم المخدرات والبطالة ، ولازالت غزة محاصرة ودون وقود أو مواد غذائية ، ولا زال الفقر سيد الموقف في المخيمات ...

لا زال التقصير يلف كل أبناء فلسطين والأمة العربية والإسلامية .

فهيم الحفيد

هل نُحمّل صغارنا أكثر من طاقتهم ؟ أم أن الأصل أن نبثّ فيهم آمالنا وأحلامنا وتمنياتنا ، علّهم يحققون بعضها إن كبروا ؟..

ألم نسمع دوماً أن المرأة اليهودية كانت تهز وليدها وهي تردد "قطعت يميني إن نسيتك يا اورشاليم" فكيف نقلق من استمرار نقش عبارات العودة وحق العودة في نفوس أبنائنا ؟

عندما أنجب محمد ابنه البكر سماه - حسب عادات الأهل - على اسم أبيه .. فذلك أمر مفروغ منه للابن البكر ، أن يسمي ابنه البكر على اسم أبيه سواء أعجبه هذا الاسم أم لم يعجب زوجته ، وكان "فهيم" الحفيد يحمل الاسم الرباعي للجد .. وظلّت العائلة جميعها تتصور أن حامل هذا الاسم ، سيقوم بما كان على الجد أن يقوم به ، وهو العودة إلى يافا وممتلكاتها ...

فهل إلى ذلك من سبيل؟ ...

كم مرة سمع فهيم " الحفيد " والأحفاد الآخرون -الذين يحملون أسماء أجدادهم الآخرين من العائلة ذاتها-

كم مرة سمعوا هذا التكليف المستمر بواجبهم في السعي لاستعادة حقوقهم المسلوبة ؟..

فمنذ ولد الحفيد " فهيم " في أمريكا ،وحمل الجنسية الأمريكية،وعندما أصبح للعائلة أكثر من حفيد آخر لأبنائها الآخرين ، يحملون الجنسية الأمريكية أو الكندية ،وجميع العمات والأعمام يحمِّلونهم مسؤولية المطالبة بحقوق عائلتهم ولو"قضائياً " . فالمنطق – الذي يحكم كل أمور الحياة ما عدا ماله علاقة باليهود - يقضى بإمكانية المطالبة بالأرض والعقار المسجل باسم العائلة بكواشين تعود إلى العهد العثماني، وحكومة الانتداب البريطاني .

ولكن أين هي هذه الكواشين وقد ضاع بعضها ، وأتلفت الحكومة البريطانية وحكومة الاحتلال الإسرائيلي ما تبقى منها سواء بفعل فاعل أو بفعل سوء التخزين والزمن ؟ ..

ولا تزال " دوسية ما تبقى لكم " من هذه الكواشين في أحد الأدراج ، يحتاج لمن يتولى قضيتها مع قضايا الحل العادل .

أما فهيم الحفيد ، فلم يعد موجوداً لمتابعة الأمر !!

كسرت ظهري يا محمد

وقفت البنات في باب بيت أخيهن محمد عشية ليلة عيد الفطر.. كانت كل واحدة في بيتها تجهز لعائلتها مراسيم احتفال العيد القادم ، كعك العيد ، الملابس الجديدة .. تنظيف البيت.. توالت الهواتف للالتحاق ببيت أخيهم محمد لأمر جلل.. لقد وصل الخبر أن "فهيم" الحفيد والذي يدرس في أمريكا، قد تعرض لحادث سيارة أودى بحياته!!

كيف يموت شاب لم يتجاوز عمره الثمانية عشرة عاماً هكذا وبكل بساطة .. وهل يجرؤ أحد إلا عزرائيل عليه السلام على أخذ روح شاب لم يرَ الدنيا بعد ؟! وهل بعد كل المعاناة التي يعانيها الأهل لتربية أبنائهم وهم أطفال ثم مراهقين ثم في مطلع الصبا ، يأتي من يأخذ روحهم وينتزعهم من عائلاتهم ؟

لم يكن فهيم الحفيد مرتبطاً ارتباطاً عادياً بجدته هدى ولا بأبيه محمد .. كان له وضع خاص ، ولذلك كانت وفاته لها وضع خاص أيضاً ..

بعد ثمانية عشر شهراً من ولادته ، وبعد عودة والديه من أمريكا إلى عملهم في الكويت ، انفصل الأب عن زوجته، وتركت الأم ابنها " لتتفرغ لحياتها " !!

وحمل الأب ابنه ، واستعان بوالدته لرعايته .. وما أصعب الأمر .. فالجده وقد أثقلها الزمن ، وربّت عشرة أبناء تزوج معظمهم ، وأحست أنه قد جاء وقت الراحة ، يطلب منها ابنها ترك بيتها في عمان ، لتهتم بابنه الرضيع في الكويت !!

ولصعوبة الوضع ، اضطر الأب لترك وظيفته في الكويت والعودة بطفله إلى عمان لترعاه الجدّة في بيتها ...

كان الحفيد فهيم موضع اهتمام وحب العائلة ، فمن لا أم له ، تصبح جميع العمات والمعلمات وحتى الجارات أمهات له ، بشكل صحّي أحياناً وغير صحي أحياناً أخرى كثيرة ..

ماذا يدرس ، ماذا يأكل ، أين يذهب ، من هم أصحابه يكفيه لعب الطابة ، لماذا الذهاب إلى السينما ؟ لماذا لا يزور أخواله؟هل سألت عنه أمه،مسكين يا حرام،الله يعينه..

مسكين..يا حرام .. الله يعينه

كان موضوع ترك والدته له أمراً محيّراً ومزعجاً ومؤلماً للجميع ..له أولاً قبل وبعد كل شيء..ولوالده الذي لا يعرف ماذا يجيبه على تساؤله :أين أمي؟لماذا لا تسأل عني ؟ لماذا لا تحضر حفلات النشاط التي أشارك بها في المدرسة ؟

إذا تسلم درع البطولة في كرة القدم تمنى في قرارة نفسه لو تبارك له أمه بذلك..لو نال شهادة تفوق في المدرسة ، تمنى لو أن أمه تحضر حفل التفوق هذا .. في عيد الأم وعيد الأسرة وعيد الفطر وحتى عيد العمال ، يتمنى لو ترى والدته ملابسه الجديدة وتثني على جماله،الذي يثني عليه أكثر الناس من حوله .. إنها الأم ، خصّها الله وفي نفس الوقت ، فرض عليها واجب تربية ابنها وهو صغير .. فلماذا تتركه أمه ؟

وعندما سافر إلى أمريكا " بلد جنسيته الأمريكية " للدراسة في جامعاتها، ودّع أمه على الهاتف فقط .. وعندما ركب سيارته للذهاب إلى الجامعة في ذلك النهار كان يفكر بها وبحياته التي قضاها بعيداً عنها،وبجدّته التي ربّته، وبمستقبله إن ماتت جدته ولم يعد بإمكانه رؤيتها ..

وفجأة وفي ثوانٍ ، لا يقدرها ويوازنها ويحددها إلا الله وحده، اصطدمت سيارته بجدار إسمنتي .. فأسلم روحه الطاهرة لله الواحد القهار!!

عندما اجتمع الجميع عشية ليلة العيد في منزل أخيهم محمد، كان الهاجس الأكبر ، نقل الخبر الأليم للجدة ..

الجدة التي رعت فهيم الحفيد ثمانية عشر عاماً كاملة، يعود إليها محملاً في تابوت ؟!.

الجدة التي كان يحادثها حفيدها من أمريكا ، قائلاً لها: ستي لا تموتي قبل أن أعود إليك .. فأنا أحبك .. انتظريني، لم يعد حياً ليعود ؟؟.

الجدة التي كانت تنتظر عودته حاملاً شهادته الجامعية، تسمع خبر وفاته !!

ستّي أريد بطاطا مقلية .. ستّي لا أريد هذا البنطلون.. ستي أريد أن أذهب مع أصحابي للسينما .. ستّي ..ستّي شغلها الشاغل كان هو .. مشاكله ، قضاياه ، دراسته ، ملابسه ، أصدقاؤه .. وهل هناك أصعب من تربية الطفل الرضيع ثم الطفل المراهق ثم الشاب المليء حيوية ونشاطاً؟..

عندما وصلت الجدّة إلى بيت ابنها في صباح ذلك اليوم المشؤوم ، وعندما رأت جميع بناتها يقفن خلف أخيهن خشية أن تلاقي عيونهن ، عيونها ، أحسّت أن أمراً ما قد حدث .. تساءلت عيونها قبل أن ينطق لسانها .. شو فيه؟ إيش فيه .؟

بسرعة ودون تلكؤ قال محمد المكلوم:يمّه ..حفيدك فهيم في ذمة الله ..أصابه حادث سيارة ومات ...

كتمت العمات الصرخة في صدورهن ، وارتفع النحيب الدفين من أعماقهن .. وهن يرقبن والدتهن تسمع الخبر ..

ألم تكن جدّته ومربيته وحبيبته وأمه ؟ ألم تربَّهِ شبراً شبراً ؟ ألم تتحمل مشاكله بل وتعاسته .

طوال خمسة عشرة عاماً من حياته لم تسأل أمه عنه .. كان يتحرق شوقاً لرؤيتها أو لمعرفة أنها تهتم به ..أليس أبسط حقوق الطفل على والدته أن تسأل عنه ، وأن تهتم بأمره ..

لماذا كل الأطفال في المدرسة لهم أمهات صغيرات السن متأنقات يسألن عن أطفالهن - أصحابه - وهو عنده "ست" جدّة كبيرة في السن ، لا تفهم كل احتياجاته ومتطلباته ..

في يوم من الأيام جاءت عمته من الكويت لزيارة ستِّه في عمان .. وذهبت للمدرسة للسؤال عنه ، لم يكن أحد يعرف أنها عمته .. فلما سألت عن "فهيم" ظن رفاقه أنها أمه تسأل عنه، فذهبوا إليه راكضين كي يأتي ليرى أمه .. ماذا كان شعوره ساعتها ؟؟ كيف ركض لملاقاتها .. كيف تصوّر شكلها طولها ، شعرها ، عينيها ؟ .. كيف تصور لقاءه بها ، هل ستحتضنه بعد هذه السنوات ؟.

لماذا تركته طوال هذه المدّة وجاءت الآن تسأل عنه ؟.. ولكنها لم تكن هي .. كانت العمّة .. كيف تتحطم الأحلام بهذه السرعة؟؟.

وقفت الجدّة بالباب لا تصدّق ما سمعت . فابنها ألقى على مسامعها كلاما فجاً مفاجئاً قاسياً لا يستوعبه عقل .. حفيدك فهيم في ذمة الله ..

إيش .. إيش.. إيش .. بتقول .. مين ؟ .. فهيم ؟

هل صرخت ؟ هل شقت ثوبها ؟ هل انفجرت ؟ ..

هبطت على الأرض .. وقالت ..كسرت ظهري يا محمد .. كسرت ظهري .. ظهري انكسر .. ظهري انكسر ...

كانت أصعب لحظة يعيشها إنسان .. فموت الحفيد له طعمٌ آخر .. وموت حفيد في درجة اليتيم من الأم موضوعٌ آخر ...

أودعته عند خالقه

بعد وفاة ابنه البكر لم يمهله المرض طويلاً .. يقولون أن الحزن الشديد يؤدي إلى المرض.. وقد هاجمه السرطان فعلاً وانتصر عليه، وجلست هدى تحت قدمي ابنها محمد على سريره تدعو له بالشفاء .. "يارب تأخذ من عمري وتعطيه،يارب تخليه لشبابه وأولاده" أما أنا فيكفيني ما لقيت في حياتي .. كانت جرعات الكيماوي التي أخذها في أمريكا،قد أثرت على شكله وشعره.. وعندما نزل في أرض المطار في عمان، ووقفت هدى وبناتها لاستقباله ، وقد عاد مع أخيه وزوجته ، لم تكد تعرفه !!

لماذا يؤثر الكيماوي هكذا في الإنسان؟يتضخم في مرحلة، ثم يسقط شعره في مرحلة ، يضمر في مرحلة .. تحمّر بشرته في مرحلة ثم تعود فتسودّ..تشيخ ، تفقد بريقها ..

جلست تحت قدميه ، فهو ابنها الأول .. انتظرته بكل لهفة الأمومة .. وفرحت بشهاداته من الصف الأول وحتى شهادة الطب ثم التخصص في الطب النفسي .. لماذا يارب أراه الآن يذوي بين يدي ؟؟ ما الحكمة ياربي في ذلك ؟ تلك حكمتك يارب ولا اعتراض عليها .. ياريت تأخذ من عمري وتعطيه ، فقد عجزتُ عن التحمل!!

كان حلول الأجل أقوى من الدعاء.. فلله مقاليد السماوات والأرض ، بيده كل شيء.. وهو على كل شيء قدير

وقد قدّر الله ، وما شاء الله فعل ...

بحزنٍ كبير أدمى قلوب كل محبيها ومعارفها وجاراتها وبناتها وأقاربهم، قلوب مجتمع عمان من الأنصار والمهاجرين ، من الشوام والشركس والفلسطينيين وحتى الأرمن والأكراد .. ودّعت هدى ابنها ، واحتسبته عند الله تعالى ، الذي لا تضيع ودائعه .

الخاتمة

عندما حملها مائة أو يزيد من أحفادها وأزواجهم إلى المقبرة ..كانت قد أوصت أن تدفن فيما يسمى "الفستقية" كما دفنت ستها أم حسن في يافا ..

توفيت ولم تكن تعلم ، ولم يكن أحد يعلم " أن حفيداً من أحفادها قد ذهب بعيداً للجهاد من أجل القدس وفلسطين"

...

ملحق صور

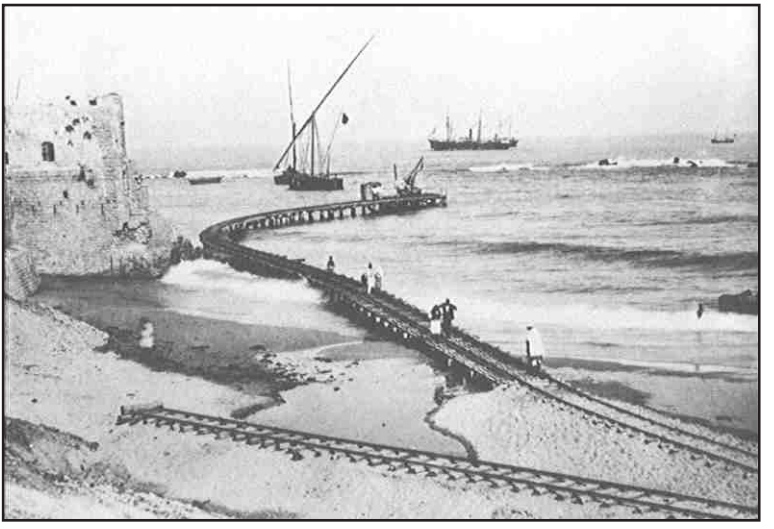

ميناء يافا قبل ١٩٢٠ وتظهر سكة الحديد

يافا منظر عام شارع العجمي في العشرينات

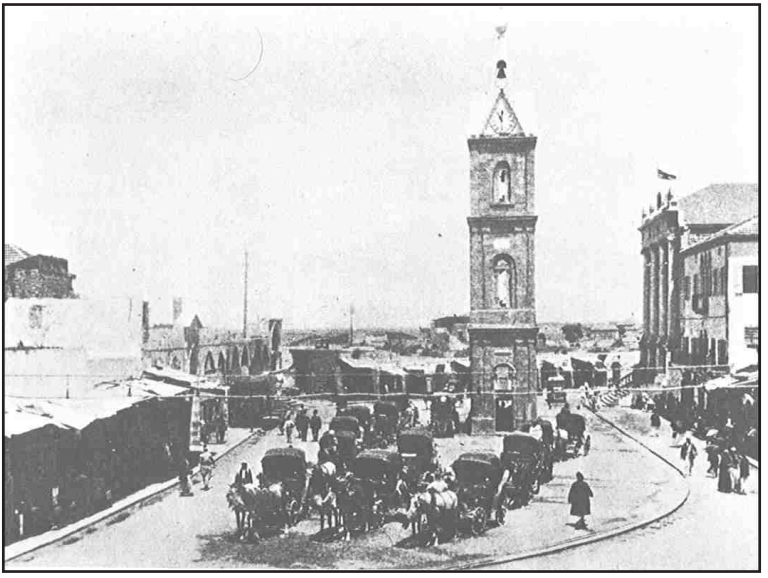

ميدان الساعة وتظهر عربات الكارو والدليجانس قبل عام ١٩١٤

المدينة قبل ١٩١٤

احدى بيارات البرتقال قبل النكبة

برتقال يافا للتصدير

بسطة قهوة في يافا قبل النكبة

بيارات يافا

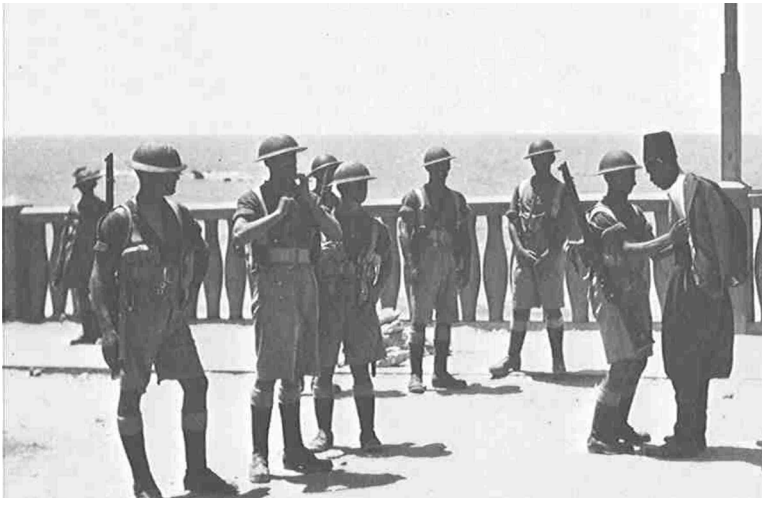

جنود الاحتلال يفتشون فلسطينياً يافاوياً أثناء ثورة ١٩٣٦

حوض الميناء القديم

القمباز والجلباب الاسود

زقاق في المدينة القديمة ١٩٩٠

منظر لحوض الميناء

سينما الحمراء الشهيرة الموجودة في شارع جمال باشا. والعلم الفلسطيني على قمة المبنى. ١٩٣٧

مظاهرة ضد تزايد الهجرة الصهيونية تشرين اول ١٩٣٣

نسف الاحتلال البريطاني للحي القديم الذي أدى لهدم قرابة نصف مدينة يافا القديمة

هدم اجزاء من مدينة يافا بعد النكبة

التفتيش عن الأسلحة

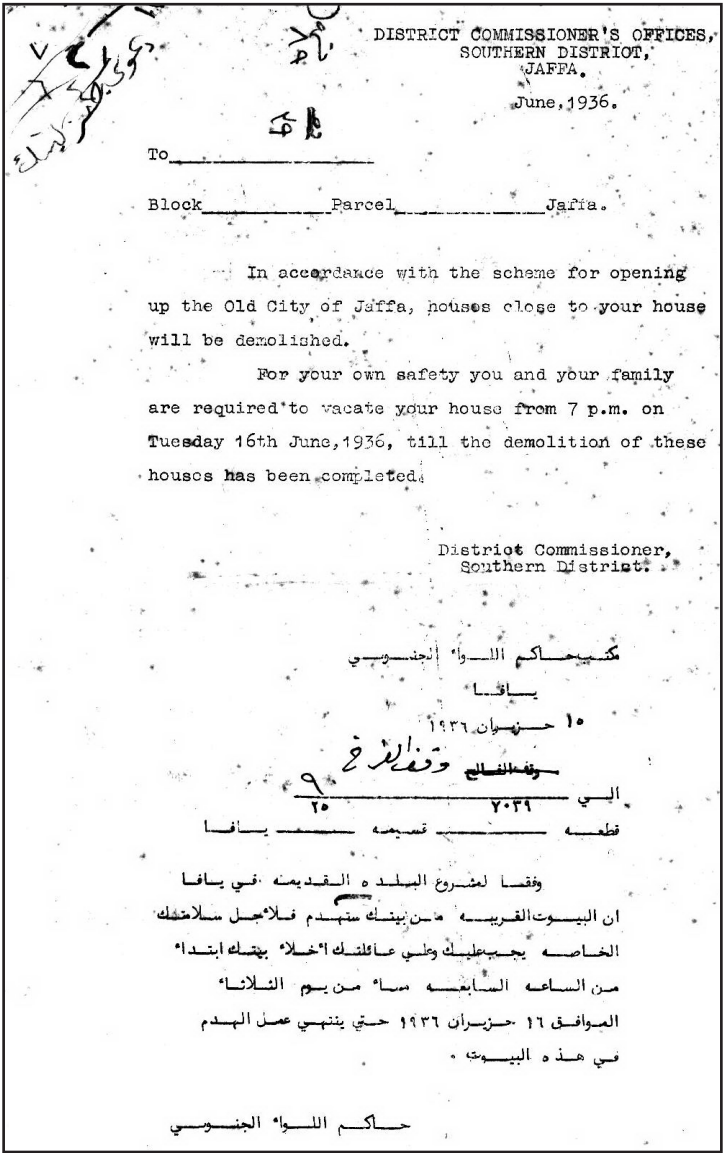

DISTRICT COMMISSIONER'S OFFICES,
SOUTHERN DISTRICT,
JAFFA.

June, 1936.

To____________________

Block____________Parcel_______________Jaffa.

In accordance with the scheme for opening up the Old City of Jaffa, houses close to your house will be demolished.

For your own safety you and your family are required to vacate your house from 7 p.m. on Tuesday 16th June, 1936, till the demolition of these houses has been completed.

District Commissioner,
Southern District.

مكتب حاكم اللواء الجنوبي
يافا

١٠ حزيران ١٩٣٦

الى ________________
٢٠٣٩ ٢٠

قطعه ________ قسيمه ________ يافا

وفقا لمشروع البلده القديمه في يافا
ان البيوت القريبه من بيتك ستهدم فلاجل سلامتك
الخاصه يجب عليك وعلى عائلتك اخلاء بيتك ابتداء
من الساعه السابعه مساء من يوم الثلاثاء
الموافق ١٦ حزيران ١٩٣٦ حتى ينتهي عمل الهدم
في هذه البيوت .

حاكم اللواء الجنوبي

اشعار باخلاء المناطق تمهيداً لهدم أجزاء من يافا من حاكم اللواء الجنوبي الانجليزي

F. 49.

GOVERNMENT OF PALESTINE

حكومة فلسطين

ממשלת פלשתינה (א"י)

No. E 313809

REVENUE TAX RECEIPT وصل بالضريبة المتحصلة קבלה על מסים

District .... لواء / מחוז	Instalment .... قسط / תשלום
Sub-District .... قضاء / הנפה	Register No. ٧٤٢٢ رقم السجل / מספר הספר
Village ٧٤٢٢ قرية / כפר	Folio No. ٧٨ رقم الصفحة / מספר הדף

Kind of Taxes نوع الضرائب סוג המסים	Arrears المتأخرات פיגורי תשלומים		Curr. Year السنة الحالية השנה הזאת		Total المجموع סך הכל	
	L.P. ج.ف. פונט	Mils مل מיל	L.P. ج.ف. פונט	Mils مل מיל	L.P. ج.ف. פונט	Mils مل מיל
House and Land Tax ضريبة المنازل والاراضي מס הבתים והקרקעות						
Rural Property Tax ضريبة الاملاك في القرى מס הרכוש הקלאי						
Urban Property Tax ضريبة لاملاك في المدن מס הרכוש העירוני	—	—	١	٢٠٠	١	٢٠٠
Animal Tax ضريبة الحيوانات מס הבהמות						
Tithes اعشار מעשרות						
Other Taxes ضرائب اخرى מסים אחרים						
TOTAL المجموع סך הכל	—		١	٢٠٠	١	٢٠٠

Received from [illegible] وصل من / נתקבל מאת

the sum of [illegible] مبلغ / סך

on a/c of .... Sub-District [illegible] على حساب قضاء / על חשבון נפת

Date [illegible] التاريخ / התאריך   Signature [illegible] التوقيع / החתימה

P. 49

GOVERNMENT OF PALESTINE

حكومة فلسطين

ממשלת פלשתינה (א״י)

No. F 246795

REVENUE TAX RECEIPT وصل بالضريبة المحصلة קבלה על מסים

District .... لواء מחוז Sub-District .... قضاء הנפה Town or Village .... مدينة أو قرية העיר או הכפר	Reference to Tax Payers Register القيود حسب سجل دافعي الضرائب מספר הסימנין בפנקס משלם המסים Volume No. .... رقم المجلد מספר הכרך Folio No. .... رقم الصفحة מספר הדף

Kind of Taxes نوع الضرائب סוג המסים	Arrears المتأخرات פיגורי תשלומים L.P. ج.ف. פונט	Mils مل מיל	Curr. Year السنة الحالية השנה הזאת L.P. ج.ف. פונט	Mils مل מיל	Total المجموع סך הכל L.P. ج.ف. פונט	Mils مل מיל
Urban Property Tax ضريبة الاملاك في المدن מס הרכוש העירוני	[illegible]		[illegible]		[illegible]	
Rural Property Tax ضريبة الاملاك في القرى מס הרכוש החקלאי						
House and Land Tax ضريبة المنازل والاراضي מס הבתים והקרקעות						
Tithes اعشار מעשרות						
Animal Tax ضريبة الحيوانات מס הבהמות						
[illegible]					[illegible]	
TOTAL المجموع סך הכל					٤٦٠	

Received from .... [illegible] .... وصل من
נתקבל מאת

the sum of .... [illegible] .... مبلغ
סך

as shown above .... [illegible] .... كما هو مبين اعلاه
לפי הנ״ל

Date .... [illegible] ٤٦ .... التاريخ
התאריך

Signature Tax Collector .... [illegible] .... امضاء محصل الضرائب
חתימת גובה המסים

برتقال يافا

مدينة اللد في قضاء الرملة

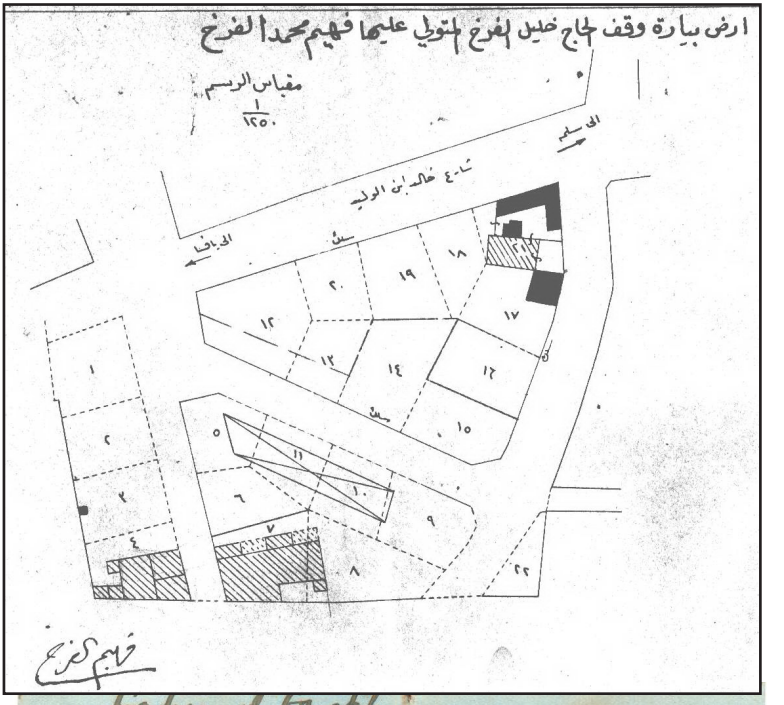

Bearer Fahim el Farekh.

Of (Address) Nuzha Jaffa
has permission to travel in Palestine at own risk.

By ROAD & RAIL (if rail accommodation available).

and is permitted to use the vehicle described below on any road.*

~~Registered No. of Car~~* Passenger

~~Make~~* as a Govt. Survey

~~Colour~~* Officer

Signature of Issuing Officer [signature] Maj. S.C.(M)

*This MUST be STRUCK OUT in ink if permission to use a vehicle is NOT granted.

Photograph of Holder.

MILITARY CONTROL SOUTHERN AREA

Signature of Holder Fahim Farekh

اهل يافا المنكوبة يغادرون بالسفن ١٩٤٨

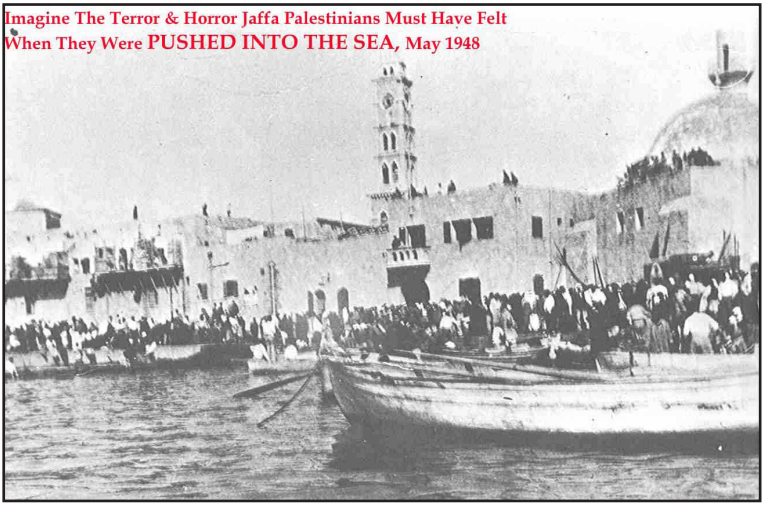

اهل يافا المنكوبة يركبون القوراب بعد سقوط يافا ١٩٤٨

حي العجمي من الاحياء الفلسطينية الوحيدة في المدينة بعد النكبة. ٢٠٠١

الحاج فهيم محمد الفرخ وزوجته هدى عبدالله الفرخ

الحاجه هدى الفرخ

ثمرة يقطين بطول الرجل

فهيم الفرخ مع بناته وأبنائه

طالبات مدرسة الزهراء / يافا

الحاج خالد الفرخ

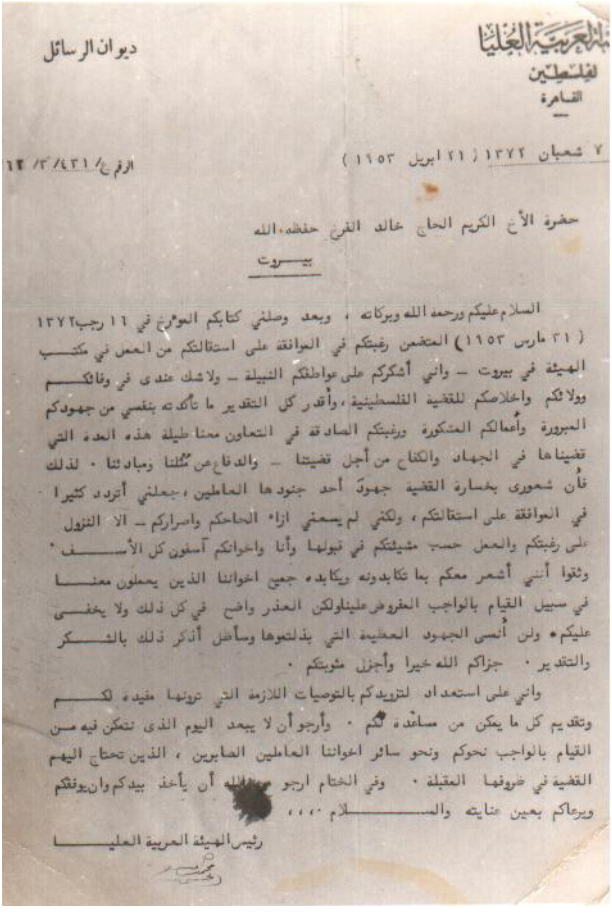

الهيئة العربية العليا
لفلسطين
القاهرة

ديوان الرسائل

الرقم ع/ ٤٣١/ ٣/ ١٤

٧ شعبان ١٣٧٢ (٢١ ابريل ١٩٥٣)

حضرة الأخ الكريم الحاج خالد الفرخ حفظه الله
بيروت

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد وصلني كتابكم المؤرخ في ١٦ رجب ١٣٧٢ (٣١ مارس ١٩٥٣) المتضمن رغبتكم في الموافقة على استقالتكم من العمل في مكتب الهيئة في بيروت – وانني أشكركم على عواطفكم النبيلة – ولا شك عندي في وفائكم وولائكم واخلاصكم للقضية الفلسطينية ، وأقدر كل التقدير ما تأكدته بنفسي من جهودكم المبرورة وأعمالكم المشكورة ورغبتكم الصادقة في التعاون معنا طيلة هذه المدة التي قضيناها في الجهاد والكفاح من أجل قضيتنا – والدفاع عن مُثلنا ومبادئنا . لذلك فأن شعوري بخسارة القضية جهودَ أحد جنودها العاملين ، يجعلني أتردد كثيرا في الموافقة على استقالتكم ، ولكني لم يسعني ازاء الحاحكم واصراركم – الا النزول على رغبتكم والعمل حسب مشيئتكم في قبولها وأنا واخوانكم آسفون كل الأسف . وثقوا أنني أشعر معكم بما تكابدونه ويكابده جميع اخواننا الذين يحملون معنا في سبيل القيام بالواجب المفروض علينا ولكن العذر واضح في كل ذلك ولا يخفى عليكم . ولن أُنسى الجهود العظيمة التي بذلتموها وسأظل أذكر ذلك بالشكر والتقدير . جزاكم الله خيرا وأجزل مثوبتكم .

وانني على استعداد لتزويدكم بالتوصيات اللازمة التي تروونها مفيدة لكم وتقديم كل ما يمكن من مساعدة لكم . وأرجو أن لا يبعد اليوم الذي نتمكن فيه من القيام بالواجب نحوكم ونحو سائر اخواننا العاملين الصابرين ، الذين تحتاج اليهم القضية في ضوفها العقيلة . وفي الختام ارجو من الله أن يأخذ بيدكم وان يوفقكم ويرعاكم بعين عنايته والسلام ،،،

رئيس الهيئة العربية العليا

رسالة من الحاج أمين الحسيني زعيم فلسطين الى الحاج خالد الفرخ

مدرسة زين الشرف الثانوية في عمان

افتخار بطلة مسرحية مع طالبات مدرسة زين الشرف

الاخوه الثلاثه محمد ، محمود ، خليل

الاخوه الثلاثه خليل ، محمد ، محمود ،

كاملة تزوجت السيد سعد ابن الشيخ محمد شعبان

ازهار تزوجت الدكتور سعيد الافيوني

انتصار تزوجت المهندس عبدالله خليفة

افتخار تزوجت السيد عبدالرزاق بدران

رضا تزوجت المهندس هشام عز الدين

فاطمة تزوجت المهندس محمود القباني.

روضة تزوجت المهندس حسام الدين الهدهد

ازدهار أمام منزل والدها في يافا بعد مرور ستين عاماً

جمهورية مصر العربية

جامعة عين شمس

بعد الاطلاع على نتيجة امتحان كلية التربية المعتمدة بقرار مجلسها في ٩ يناير سنة ١٩٩٠

قرر مجلس الجامعة بتاريخ ١٨ مارس سنة ١٩٩٠

منح السيدة / كاملة فهيم محمد الفرخ ابنة السيد فهيم محمد الفرخ

المولودة في يافا - فلسطين سنة ١٩٣٢ ميلادية

درجة دكتوراه الفلسفة في التربية (صحة نفسية)

موضوع الرسالة: "مدى فاعلية برنامج إرشادي على التوافق النفسي لمرضى القلب والسرطان"

القاهرة في المحرم سنة ١٤١١ هجرية ويوليه سنة ١٩٩٠ ميلادية

عميد الكلية | رئيس الجامعة

سجلت برقم

توقيع صاحب الدرجة

شهادة الدكتوره كاملة الفرخ (دكتوراه في الصحه النفسية)

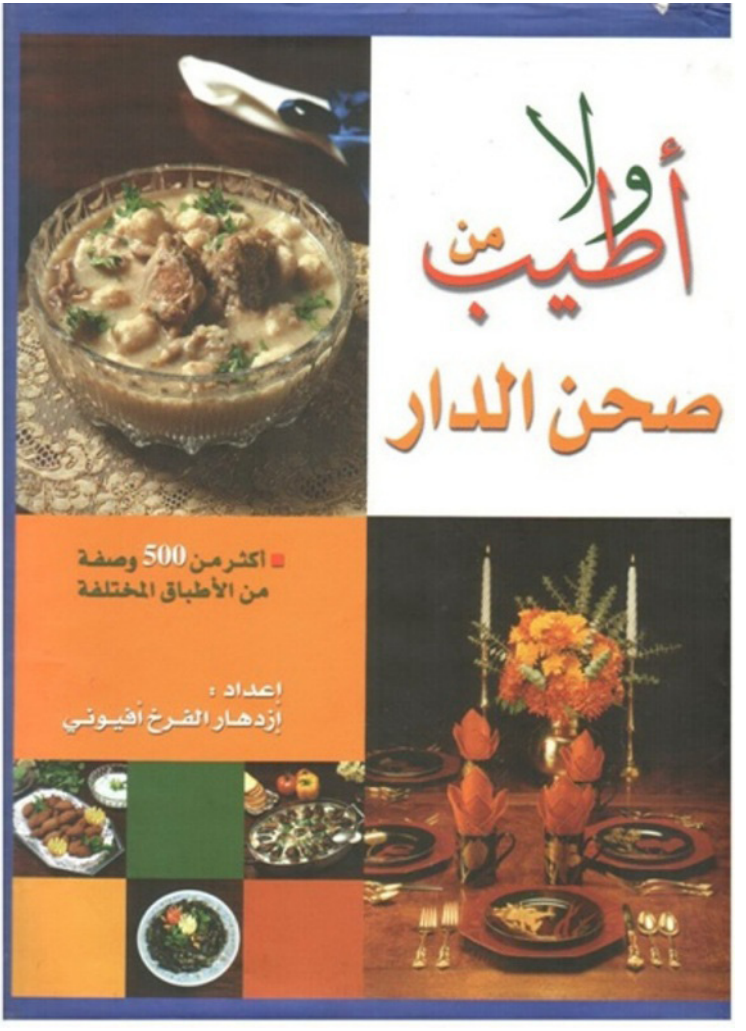
أولا
أطيب من
صحن الدار
■ اكثر من 500 وصفة
من الأطباق المختلفة
إعداد :
إزدهار الفرخ أفيوني

افتخار أسست مدارس المنهل العالمية في الكويت وعمان

مدرسة المنهل تقيم نشاطاً في ذكرى وفاة التلميذ فهيم

غرزة تطريز / هوية وطن

نشرة الفلوكة الصادرة عن جمعية يافا للتنمية الاجتماعية

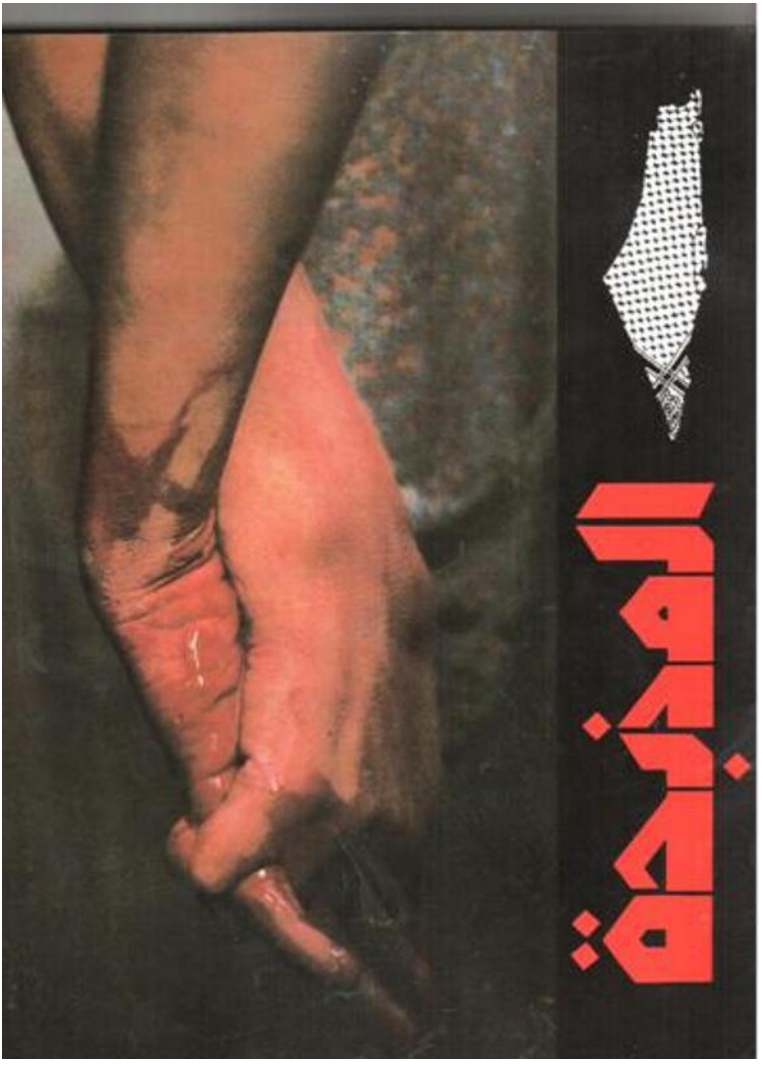

طاهر احمد الفرخ أصدر كتاب المذبحه عن مذبحة صبرا وشتيلا

فهرس الموضوعات

اهداء عام ٣

اهداء خاص ٥

شكر وتقدير ٧

تقديم ١١

عريس وعروس ١٩

سبع ليالٍ ملاح ٢١

مع الثورة ٢٢

بكرية تتزوج ٢٥

خالد في السجن ٢٧

إنهاء الإضراب ٣٠

زغرودة أم حسن ٣١

الانتقال ٣٣

الرحيل ثم الرحيل ٣٥

المفاجأة ٤٢

سنوات الضياع ٤٥

الخبران السعيدان ٤٩

تاريخ وتأريخ وأشعار ٥٢

في الشتات ٥٥

مجتمع عمان ٥٩
الوحدة ٦٣
الموت ٦٥
سجل الذكريات ٦٩
على سطح الدار ٧٣
أمينة السعيد ٧٥
النفط يتدفق ٧٨
الأيام الستة ٨١
حق العودة ٨٣
زيارة إلى يافا ٨٥
يا بربراوي يا عنب ٩٢
متر من الأرض ٩٥
الثقافة والمطابع ٩٧
رحلة العلم ٩٩
هذه رائحة طبيخ أمي ١٠١
علم ينتفع به ١٠٣
غرزة تطريز / هُوية وطن ١٠٦
تاريخ يافا ١٠٨
هل خفرنا ذمَّةً مُذْ عرفانا ؟ ١١١
أراضٍ محتلة ١١٤
كواشين / قواشين ١١٧

التقصير ١٢٠
فهيم الحفيد..... ١٢٣
كسرت ظهري يا محمد..... ١٢٥
أودعته عند خالقه..... ١٣١
الخاتمة ١٣٣
ملحق صور ١٣٥

هذا الكتاب

ليسَ من السهل أن يبوح المرء بأسرار حياته ، أو تفاصيلها .. وقد لا تعني هذه الأسرار وهذه التفاصيل أحداً غيره ، بل وقد يجدها الآخرلا معنى لها ، أو لا تهمه لأنها مفصولة عن ذكريات وحوادث قبلها وبعدها ..

ومع ذلك ، فهذه السيرة العائلية قد لا تخص أفرادها فقط - وهم كثيرون تجاوزوا منزلة العشرات والمئات - بل هي سيرة هجرة من وطن ، وعيْش في وطن آخر أصبح " بمثابة " وطن آخر لهم .. تآلفوا مع مجتمعه وأحبوه وأحبهم ، فتعرفت العائلة على هذا المجتمع الذي جمع البدوي والمدني والفلاحي ، الريفي والشركسي والأردني ، السوري والفلسطيني ، ثم درست البنات والبنون على مقاعد المدارس فتآلفوا مع المئات من الطالبات والطلبة وأحبوهم وعاشوا معهم أجمل الذكريات.. ثم تزوجوا ، فزادت أواصر القرابة والمعرفة والمحبة بينهم ، ثم انخرطوا في العمل الإجتماعي والعملي والنقابي والسياسي فازدادت المحبة والاحترام على كل الصعد ..

وقد تكون هذه السيرة مطابقة لسيرة عشرات بل مئات من العائلات ، لو غيّرتَ أسماء أصحابها لأصبحت لعائلة أخرى ، وإلا فما معنى الشعب الواحد الذي يعيش الآمال والآلام والأحلام ، والعادات والتقاليد والأعراف والمصالح الواحدة ؟! .

إنها سيرة نقدمها للقارئ الأردني والعربي يقرأها كل فرد بما يهمّه الأمر : الخاص أو العام ، سيرة أفراد لمن عرف العائلة أو هو فردٌ منها ، أو سيرة شعب أُقتُلِع من جذوره ، وظلّ حيّاً يرزق ينادي بالعودة ، ليُضاف هذا الكتاب إلى السجل العام : " فاصلة " صغيرة في حب يافا والوطن السليب .

١٥/أيار/٢٠١٢

رابطة الكتاب الأردنيين
JORDANIAN WRITERS SOCIETY
كنده
دار نشر وتوزيع